المحطّات الرئيسيّة في تاريخ الرهبانيّة اللبنانيّة المارونيّة

الأب كرم رزق
مدير قسم التاريخ
في جامعة الروح القدس – الكسليك

نشأة الرهبانيَّة اللبنانيَّة والتراث السرياني

يصعب تدوين تاريخِ مؤسَّسةٍ عمَّرت أكثر من ثلاثمائةِ سنة. ويستحيل حصر تطوُّرِ الحياةِ فيها، ورصدُ تنوُّعِ نشاطاتِها، وتشعُّبِ علاقاتِها، في دراسةٍ مقتضبة، كما أنَّ ضياعَ مصادرها وتبعثُرَ وثائقها يزيدان هذه الصعوبات تعقيداً. لكنّنا نُقدِم على هذه المحاولة التأريخيّة مستندين إلى جهود مَن سبقنا في هذا المجال، أمثالَ الأبوَين لويس بليبل ومارون كرم وغيرهما، مستترين أيضاً بما قُدِّر لنا أن نجمع من أصولٍ أوّليَّة.

نشأتِ الرهبانيَّةُ اللبنانيَّةُ المارونيَّةُ عام 1695، نتيجة لعملٍ تجديديٍّ رهبانيٍّ قام به ثلاثةُ شبّانٍ موارنةٍ أتوا من حلب، هم جبرائيل حوّا، وعبد الله قرأعلي، ويوسف البتن. انتمى هؤلاء الرجال إلى عائلاتٍ مارونيّة عريقةٍ في التقوى والحسَب. اختمرتْ فيهم دعوةُ الروحِ للحياةِ الرهبانيّة، ففاتحوا بعضُهم بعضاً وذويهم بمقصدِهم، وأمُّوا لبنان تحت غطاءِ الحجِّ والتجارة، بناءً على توصيةِ أهلهم، احترازاً من فشلٍ ممكن.

وعندما وطئوا عتبة دير سيّدة قنّوبين، الذي كان قد تحوّل كرسياً للبطريركيّة المارونيَّة منذ سنة 1440، مَثَلوا أمام البطريرك اسطفان الدويهي (1670-1704)، وكشفوا له سرَّ دعوتهم. فاستجوبهم البطريرك، ونبَّه خاطرَهم إلى شظفِ الحياةِ الرهبانيّة في أماكنَ فقيرةٍ وغير آمنة، وهم أبناءُ رغدٍ ودلال. فأكّدوا له اقتناعَهم وتصميمَهم. حينئذٍ بارك البطريرك خطوتَهم، ودعمَ مسيرتهم، ووهبهم مقرّاً في دير مُرت مورا – إهدن، في 1 آب 1695. وهكذا كانت البداية.

أين موقعُ هؤلاءِ المؤسِّسين من الحياة الرهبانيّة المارونيَّةِ السريانيّةِ الإنطاكيّة؟

أجل، لقد عرفتِ الكنيسةُ المارونيَّةُ، منذ ولادتها، الحياةَ الرهبانيّة الديريَّة، التي ازدهرتْ وسادتْ في جوار أنطاكية، "المتروبول" السياسيّة والروحيّة للشرق المسيحيّ. وتكاد الكنيسة المارونيَّةُ تكون الوحيدةَ التي ترعرعتْ في هذا المناخ الرهبانيّ، ونَمَتْ بفضلِ عملِ رهبانِ دير مار مارون[1].

ولكن، بفعلِ تمركُزِ الكنيسة المارونيَّة في لبنان، ابتداءً من القرنِ السابع الميلاديّ، اتّخذتِ الحياةُ الرهبانيّة فيها شكلَها البدائيّ، ذاك الذي نتعرَّف إليه من خلال افراهاط († 275) ومار افرام († 373)، وهما اللذان يُعتبران أوّل مَن وَصَفَ لنا المسارَ الزهديَّ التوحُّديَّ الذي سبق النهجَ الرهبانيَّ المنظَّم. ثمّ أرَّخَ بعدهما الأسقف تيودوريطس القروشي (393 – 460) للتيّار الرهبانيّ الواسع الذي انتشر في رحاب أنطاكية.

---

1 - نعمان بولس، المارونيَّة لاهوت وحياة. من جبال قورش إلى سهول أفاميا، الكسليك، لبنان، 1992.

إنّ الذين اتّبعوا الطريق الزهديَّ، طلباً للكمال المسيحيّ، استأنس قسمٌ منهم بالستحباس في مناسكَ طبيعيّةٍ صعبةِ المنال، وتوحَّد قسمٌ آخرُ في الكهوف والمغاور، واعتلى بعضُهم رؤوسَ الأعمدة، وعمَّر بعضُهم أديرةً ولجأوا إليها... اكتفى اولئك المتوحِّدون بالزهدِ الكلّيّ، يمارسونه تحت إشرافِ معلّمين تقدّموا بالكمال المسيحيّ، واكتسبوا الفضائلَ، فَغَدَوا أمثلةً حيَّة. وهكذا استغنى النسّاكُ عن قانونٍ ينظّم دقائقَ حياتهم المشتركة، ويربطُهم بعضاً ببعض، بترتيباتٍ ليتورجيّةٍ وعمليّة، مدارَ النهار، ويشدُّهم إلى رئيسٍ محلّيّ، وكلّ جماعة منهم إلى رئيسٍ عامّ.

سار الرهبانُ الموارنةُ على هذا النهج الرهبانيّ السريانيّ القديم[2]الذي استمرَّ بشكلٍ متقطّع في لبنان إلى بداية القرن العشرين. وخيرُ مثالٍ عنه، في القرن التاسع عشر، هو نهج الرهبان النسّاكِ المتحدّرين من قرية إهمج. سلَّم هؤلاءِ إلى الرهبانيّة وقفية "رويسة عنّايا"، مُهيِّئين لقيام دير مار مارون – عنّايا. وانتظموا نهائيّاً في سلك الرهبانيّة سنة 1838[3].

ما هي الأسباب التي جعلت الحياةِ الرهبانيّة الديريَّة تتراجع؟

ربما كانت الخلافاتُ العقائديّةُ واللاهوتيّةُ، التي تفاقمتْ منذ القرن الخامس، ومضايقاتُ الفاتح العربي، التي حوَّلتِ المنطقة الشماليّة من سوريا لإلى حلبةِ صراعٍ دائمٍ بين العرب والبيزنطيّين، هي التي قوَّضتْ شموخَ بنيان، قلّما أنجب التاريخُ ما هو بمقدارِ عظمتِه، ودفعتْ طلاّبَ الحياةِ الرهبانيّة، وقد جرّبتهم تلك المِحَن، إلى أن يُقلعوا عن نموذج حياةٍ هوى على الرغم من متانة عمارته، وسعة إشعاعه، وقد طال أجزاءً كبيرة من آسيا، حسبما تشهد ثمارُ التبشير والمخطوطاتُ والكتاباتُ والآثارُ الهندسيّة... هذا بعضٌ من عوامل خارجيّة يمكن إثارتها في الموضوع.

وإذا راقبنا العواملَ الداخليّة النابعة من تكوين الكنيسة المارونيَّة، يبدو أنّ الرهبان الموارنة تخلّوا عن تنظيمهم المُحكَم، وعن دورهم الطليعي، بعد أن أسهموا في خلق البطريركيّة المارونيَّة وتثبيتها، تلك المؤسّسة التي حزمتْ أمرَها منذ أواخر القرن السابع، وتعهَّدتْ ولا تزال تتعهّد الشأن الماروني. فارتباطُ "الرهبان" بالبطريركيّة، وقوّةُ شوكةِ البطاركةِ ربما عوَّضا عن كلِّ قانونٍ ونظام.

ويلاحَظُ أنه عندما قَدِمَ المؤسِّسون إلى لبنان، كان العديد من الأديار قائماً، لا سيّما في بلاد جبيل وجبَّة بشرّي، وحتى في كسروان حيث تكاثرت الأديار، ابتداءً من القرن السادس عشر. واستقرّ في أديار بلاد جبيل والشمال بطاركة الموارنة وأساقفتهم، منذ القرون الوسطى، وانضمّ إليهم لاحقاً تلامذة مدرسة روما المارونيَّة. ولا شك في ان ازدهار الأديار في جبل لبنان كان حافزاً دَفَعَ حتماً المؤسِّسين إلى اللجوء إليها دون غيرها. ويلحظ المطران يوسف سمعان السمعانيّ، بعد البطريرك الدويهيّ، الوجود الرهبانيّ المتناميَ في جبل لبنان، في رسالته الشهيرة التي كتبها في أوّل آذار سنة 1735، و قدّم بها للقانون الرهباني الأوّل، المعروف بـ"القانون الأسود"، والذي طُبع في روما في السنة نفسها. و يعدِّدُ السمعانيُّ أكثر من اثنين وعشرين ديراً قائماً، خصوصاً في منطقة جبيل و جبَّة بشرّي، وحوالى ثمانية أديرة في كسروان، وأخرى في المناطق الشوفيّة، ممّا يصحّح النظريّة القائلة: إنَّ المؤسِّسين جاؤوا بلقعاً. و شدّد السمعانيُّ على استمراريّة

2 - SFEIR Paul (Boulos), Les Ermites dans l'Eglise Maronite, histoire et spiritualité, Kaslik, Liban, 1985

3 - كرم مارون، قصّة الملكيّة في الرهبانيَّة اللبنانيَّة المارونيَّة، دار الطباعة اللبنانيّة، بيروت، 1972، ص66، 67.

الحياة الرهبانيّة في الكنائس الأرثوذوكسيّة والكاثوليكيّة الشرقيّة و بينها المارونيّة. وتعتبر رسالة السمعانيِّ عن حقٍّ، إلى جانب ما دوَّنه الدويهيُّ بدقّةٍ، محاولةً رائدةً، ومرجعاً مهمّاً، في كتابة التاريخ الرهبانيِّ في العصر الحديث.

غير أنّ السمعانيِّ لا يُصيب تماماً عندما يسمّي الرهبانيّة اللبنانيّة "بالأنطونيوسيّة"، معتبراً "أنّه تعالى نقل كرمة من مصر اذ امتدّت بعونه الرهبنة من مصر إلى بلاد سوريا"[4].

إنّ الحياة الرهبانيّة في لبنان لأصيلةٌ، تَرجع جذورها إلى التقليد الذي عاشه وعبّر عنه كلٌّ من افراهاط وافرام. الأوّل عبْرَ بيِّناته (Démonstration) ، والثاني تطرّق إليها في مجمل كتاباته، لا سيّما في "أناشيد الفردوس"، و"أناشيد الإيمان"، و"مقالات ضدّ الهراطقة"، و"منظومات نصيبين"، و"أناشيد البتوليّة". ومطالعتُها تُغني عن كلِّ شرح. وما نُسِب إلى افرام من أنّه قضى ثماني سنوات بين الرهبان المصريّين، كما جاء في سيرة حياته التي وُضِعت باللغة السريانيّة، هو نسيجٌ من خيالٍ يصوِّرُ مصرَ جنّة الرهبان، وموزِّعةً مواهبَ الطرق الرهبانيّة. ولم يورد التاريخ اللوسياكي (Histoire Lausiaque) الذي كُتب زهاءَ خمسين سنة بعد وفاة أفرام، أيَّة رحلة قام بها أفرام إلى بلاد مصر.

ولا أحد بين الإختصاصيّين الحاليين في التراث السرياني يعتقد أنّ السيرة الرهبانيّة انتَقَلَتْ من مصر إلى سوريا. فافراهاط وافرام كلاهما عَرَفَ النسك الإنطاكيَّ، وعرَّفَ عن شركة أو أخويّة "أبناء العهد وبناته" (fils et filles du Pacte)، التي كانت نواةً للحياة الرهبانيّة في التراث السريانيّ. هؤلاء كوَّنوا "جمعيّات" ضمن الكنيسة، وكرّسوا حياتهم في العفَّةِ والبتوليّة والتجرُّد شهادةً للمسيح. وربَّما تعرّف افرام، في سني منفاه الأخيرة في الرها، إلى النهج الرهبانيّ المنظَّم، لآننا نجد في كتاباته، في هذه المرحلة، صدى لحياة الأديرة.

ووضع ربولا في مطلع القرن الخامس مجموعة قوانين مؤلفة من خمسة وعشرين بنداً، وهي من أقدم ما وصل إلينا من هذا النوع. وربولا هذا قد ترهّب في دير مرقيانوس قرب قنسرين، قبل أن يصبح أسقفاً على مدينة الرها. وأتى بعده مَن أغنى القوانين الرهبانيّة، فتوسّعت ونُقِلت إلى العربيّة.

كلُّ ما تقدّم يُظهر أن النهج الرهبانيّ الماروني في جوهره سريانيّ أنطاكيُّ الأصل والمسار. إنّما دخلتْ عليه بالتناقل تدريجيّاً مآثرُ آباء الصحراء وأقوالُهم، عبر كتابات صحيحة وأخرى منحولة، غلبت نسبتها إلى أنطونيوس (251-356)، ولو لم يترك أبو الرهبان أيَّ قانونٍ مكتوب. ولمّا اشتهر أنطونيوس عبر كتابات أثناسيوس، وبالتناقل الشفهي، شاع الخبر أنّه أسَّس أديرة في لبنان، منها دير مار أنطونيوس – قزحيّا. ونسيانُ التراث الرهبانيّ السريانيّ الأنطاكيّ من جهة، وشهرةُ أنطونيوس من جهة ثانية، ساهما في نسبة كُلِّ رهبانيّةٍ إليه، ومنها الرهبانيّة اللبنانيّة. ورسَّخ هذا الاعتقاد تأسيس "شركة مار أنطونيوس"، كوقاية ضد كل مكروه. وتعاظمَ شأنُ دير مار أنطونيوس – قزحيّا ماديّاً وروحيّاً، حتى عُرِفتِ الرهبانيّة بـ "رهبانيّة قزحيّا"، وشاع القول: إنّه اذا خربتْ كُلُّ أديار الرهبانيّة وبقي دير قزحيّا عامراً، فلا خوفَ على الرهبانيّة، أمّا اذا خرب دير قزحيّا، فلا تقدر الأديار على تعميره[5].

مرحلة التنظيم (1695-1742)

4 - راجع مقدّمة القوانين و الرسوم الرهبانيّة المختصّة بأخويّة الرهبنة اللبنانيّة، روما، 1735، ص 22، وبدايات الرهبانيّة اللبنانيّة، إعداد جوزف قزّي، الكسليك، لبنان، 1988، ص 236.

5 - كرم مارون، قصّة الملكيّة... المرجع نفسه، ص106.

إنّ التراث الرهبانيّ السريانيّ الأنطاكيّ غنيّ ويفسح في المجال أمام نزعتَين: التوحُّديّة الفرديّة، والحياة الديريّة المنظَّمة. ولكن لمّا عزم المؤسِّسون على الترهُّب في لبنان، كان النهج التنظيميُّ قد خَبَا. ودوَّن قرأعلي في مذكّراته ما اختبر في دير سيّدة طاميش، حيث كانت تعيش جماعةٌ من تسعة رهبان في ناحية، وعددٌ من الراهبات في ناحية أخرى: لا رئيس، ولا قوانين، ولا التزام بنذورات، إلاّ على شكل تسليم، فكانوا "سائرين بسذاجة وبساطة صالحة للصالحين، وخطرة لغير الصالحين"[6]. وهذا ما سبق أن شاهده دنديني قبل مئة عام[7].

من هنا استنتج الباحثون المعاصرون أنّ المؤسِّسين راموا الإصلاح، ولكنَّ بين الإصلاح والتجديد فرقاً؛ فقد يسبِّب الإصلاح8 انشقاقاً، أو ينشِئ بنيةً أخرى. أمّا التجديد فيحصل عادةً في الجسم عينه، وهو صفة ملازمة للرهبانيّات الكبيرة التي عمّرتْ قروناً في الكنيسة. ولم يُفصِح المؤسِّسون عمّا كانوا يهدفون إليه من خلال مشروعهم.

اتّشح المؤسِّسون بالإسكيم الرهبانيّ على يد البطريرك اسطفان الدويهيّ في دير سيّدة قنّوبين، في العاشر من تشرين الثاني سنة 1695. وتعيَّن هذا التاريخ كمحطّة تأسيسيّة، وكميعاد لعقد المجامع العامّة في الرهبانيّة. واتُّخذ دير مُرت مورا مقرّاً للرئاسة العامّة، وهناك التحق جبرائيل فرحات بأترابه، في نهاية السنة. وانبرى المؤسِّسون ينظّمون حياتهم، ويستوعبون الدعوات الوافدة إليهم. فانتخبوا جبرائيل حوّا رئيساً عامّاً (1695 - 1699). ووضع عبد الله قرأعلي قانوناً مؤلّفاً من اثنين وعشرين باباً، اختصرها فيما بعد في خمسة عشر فصلاً. وشرعوا يُرتّبون أسس المجمع العامِّ والمجمع الخاصِّ وسلسلة المدبِّرين. وتقرَّر أن يُعقد المجمع العامُّ مرَّةً كُلَّ ثلاثِ سنوات. وبانتهائه كانت تُنتَخَبُ السلطةُ التي تُعيِّن الرؤساء. وبَدَتْ سنة 1698 خصبة على صعيد الإنجازات.

ولكنْ سرعانَ ما اندسَّت التفرقة فيما بينهم. فوقع في سنة 1699 خلافٌ على تحديد غاية الرهبانيّة، إنّما ارتأى حوّا أنْ تكونَ رسوليةً محضة، وأنْ يُنتَخَبَ الأبُ العامُّ لمدى الحياة. وقرأعلي، الذي وقف إلى جانبه غالبيّةُ الرهبان، أرادها أن تكونَ ديريّة، وأن تنصرفَ إلى عمل الرسالة بقدر المستطاع. فانتصر منطق عبد الله قرأعلي، وأُقيم رئيساً عامّاً، وتَبَوَّأ هذا المركزَ مدةَ ستةِ مجامع من سنة 1699 إلى سنة 1716، موعد رسامته أسقفاً على أبرشيّة بيروت. أمّا حوّا فلجأ، أوّلاً بإيعازٍ من البطريرك الدويهيّ، إلى دير مُرت مورا، ليؤَسِّسَ رهبنته. ولما لم ينجح، رحل إلى روما بعد حوالى ثلاثة أعوام سعياً لشراء مطبعة. ولكنّه استقرَّ فيها نهائيّاً، ولم يَعُدْ إلى الشرق إلاّ لمهمّة كلّفه الكرسيُّ الرسوليُّ قضاءها. وأخيراً عُيِّن أسقفاً على كرسيّ قبرص عام 1723.

وسنة 1699، "ضجر" أيضاً جبرائيل فرحات واعتزل الرهبانيّة، واستقام في زغرتا يعلّم الأولاد ويعظ. ولكنّه ما لبث أن عاد إليها سنة 1705. فَخَلَفَ قرأعلي في إدارة شؤونها، زهاءَ سبع سنين متتالية (1716-1723). فساسها بكلِّ حكمة، وأغناها بمؤلّفاته وترجماته الروحيّة والأدبيّة. وعُيِّنَ فرحات أسقفاً على أبرشيّة حلب سنة 1725.

---

6 - بدايات!... المرجع نفسه، ص27.

7 - Dandini J., Voyage au Mont-Liban, Paris 1675, p. 105,106.

8 - ترد كلمة إصلاح في أطروحة سيادة المطران يوحنا شديد التي ترجمها الأباتي بطرس فهد بعنوان: القوانين الأصليّة للرهبانية المارونيّة بفرعيها الحلبي والبلدي اللبنانيين، الكرَيم، جونية، 1969، ص 18 – 24.
راجع أيضاً محفوظ يوسف، السيرة الرهبانية المارونيّة منذ نشأتها حتى تنظيمها، الكسليك، لبنان، 1989، ص 94 – 137...

لم يبحث قرأعلي وفرحات عن أمجاد كنسيّة، بل تألّم كل منهما لفراقِه الرهبانيّة التي ارتبط بها ارتباطاً شديداً وراحا يذودان عنها من موقعهما الجديد.

وسلّم قرأعلي وفرحات الوديعة الرهبانيّة إلى أُمَناءَ جديرين من الجيل الثاني، كانوا قد تمرّسوا، تحت إشرافهما، على الاضطلاع بالمسؤوليّة، وعلى مجابهة الصعاب بعنادٍ وحزم. وبرز ممَّن عقدوا العزم من الجيل الثاني على إكمال المسيرة: ميخائيل اسكندر الاهدني، وتوما اللبوديّ الحلبيّ. وتعاون الروّاد والخلفاء تعاوناً وثيقاً على إيجاد صيغة قانونيّة متكاملة تضبط كُلَّ جوانب الحياة الرهبانيّة. إضافةً إلى ما خبره المؤسِّسون، واكتسبوه من أناةٍ وواقعيّةٍ وعمقٍ روحانيّةٍ وسبرٍ سيكولوجيّ، استلهموا، في سنِّ القوانين، التراثَ السريانيَّ والمشرقيَّ وقوانينَ الرهبان الكرمليّين والآباء اليسوعيّين. وكان البطريرك الدويهيّ قد ثبّت ثمرة جهدهم سنة 1700، وبعده البطريرك يعقوب عوّاد (1705-1733) سنة 1725، مُدخِلاً على القانون ثلاثة أبواب جُدُد: في التواضع والصبر والمحبّة الأخويّة. وأخيراً، سعى المشترعون إلى نيل التصديق من روما. وأقنعتْهم المشاكل الكبيرة، التي بلبلتِ الكنيسة المارونيّة، وطالت الرهبانيّة، إبّان البطريرك يعقوب عوّاد، بضرورة توفير ضمانة الكرسيِّ الرسوليِّ لمشروعهم المشترك. فسافر الأب العامّ ميخائيل اسكندر (1723-1735؛ 1741-1742) إلى روما، سنة 1727، بإيعاز من السمعانيّ. وبالاشتراك مع الأب يواصاف الدبسيِّ البسكنتاويِّ، وموافقة مجلس المدبِّرين، صِيْغَ القانونُ النهائيُّ الذي أثبته البابا اكليمنضوس الثاني عشر (1730-1740) ببراءة رسوليّة في 31 آذار سنة 1732، والذي طُبع على نفقة الرهبانيّة باللغتَين العربيّة – الكرشونيّة واللاتينيّة، في مطبعة مجمع نشر الإيمان، سنة 1735، بعنوان: "القوانين والرسوم الرهبانيّة المختصّة بأخويّة الرهبنة اللبنانيّة"، ولُقّب بـ "القانون الأسود". وظلَّ هذا القانون ساري المفعول حتى سنة 1938، فحلَّ محلَّه "القانون الأحمر".

لقد حافظ المطرانُ السمعانيُّ، العالِمُ المتبحِّرُ في القضايا الكنسيّة، والصائغُ الرئيسيُّ لهذا القانون، على الثمانية عشرَ باباً، وضمَّ إليها هيكليَّة قانونٍ رهبانيٍّ غربيٍّ حديث... فأعطى هذا القانونُ مناعةً أصلبَ للرهبانيّة في وجه المتحاملين عليها، كما أصبح قاعدةً لسائر الرهبانيّات الشرقيّة، ونموذجاً للتشريع المارونيّ. وربّما كان قدوةً في ما وجب إضفاؤه على الكنيسة المارونيّة؛ فسرَّع غقد المجمع اللبنانيّ الذي أتى كجواب على الرغبات المنتظرة التي كان الرهبان اللبنانيّون قد أفصحوا عنها مراراً. فالتأمتْ جلساتُ هذا المجمع الكبير في دير سيّدة اللويزة بين أواخر أيلول وبداية تشرين الأوّل من سنة 1736. وساهم الرهبان اللبنانيّون فيه مساهمةً فعّالةً من حيثُ تكاليفُه ونتائجُه. فالزخمُ التنظيميُّ الدؤوبُ وضع الرهبانيّة في مستوى القرار على صعيد الكنيسة المارونيّة.

وواكب هذه الإنجازاتِ التنظيميّة ازدهارٌ وانتشارٌ ونموٌّ في الدعوات والأديار. وانسجاماً مع انطلاقة الرهبانيّة في جبل لبنان، كان قرأعلي قد أطلق عليها، سنة 1706، اسم " الرهبانيّة اللبنانيّة" وما زالت تحمله إلى الآن. ونشأت بين الرهبانيّة ولبنان علاقة عضويّة وطيدة أوثق من صلة الجنين بالرحم.

وانتظم معظم الرهبان الموارنة في سلكها، وسلّموها مقتنياتهم طوعاً. وتُحدِّثنا روزنامات الأديار مطوّلاً بالأرقام عن أعباء هذه التركة. وانبرت الرهبانيّة تجدِّد الأديار المتداعية، وتعلي بنيانَها، وتُوفي ديونَها، وتؤدّي ضرائبها، وتتعهَّد خدمة أبناءِ جوارها.

وكانت حصيلةُ تلك الديناميّة المتفجِّرة حيويَّةً انضمامَ أكثر من تسعة أديار إليها، فضلاً عمّا تسلّمته في بدايتها كدير مُرت مورا في الأوّل من آب سنة 1695، ودير مار أليشاع النبي – بشرّي في الأوّل من نيسان سنة 1696. ثمّ انتشرت لِتَحُطَّ في الشوف، في دير مار يوحنّا – رشميّا، في شباط سنة 1706. وحلّت في دير

سيّدة اللويزة من أعمال كسروان، سنة 1706. وعادت فضمَّت سنة 1707 دير مار أنطونيوس – سيْر، قرب رشميّا. وتسلّمت في الخامس من تمّوز سنة 1708 دير مار أنطونيوس – قزحيّا. وأحسَّتْ في نفسها بالقدرة الكافية، فأنشأتْ سنة 1710 ديراً على اسم السيّدة العذراء في الدرَيْب – القبيّات، وما عتَّمتْ أن انْكفأتْ عنه. ثم تسلّمتْ: دير القدّيسَين بطرس وبولس، كرَيم التين – بيت شباب (1712)، ودير سيّدة طاميش (1727)، ودير مار الياس – شويّا (1728)، وأنطش طرابلس (1734)، ودير سيّدة مشموشة (1736)، ودير سيّدة حوقا (1737).

وأنشأت الرهبانيّة سنة 1736 دير مار الياس الراس، أوّل دير قانونيٍّ للراهبات اللبنانيّات المارونيّات، وذلك عملاً بروح القانون الذب ألغى الأديار المزدوجة. ونتجتْ عن ذلك مشكلة انتهت عواقبها سنة 1823 بفضل حزم البطريرك يوسف حبَيش (1823-1845).

وامتدّت الرهبانيّة سنة 1737 إلى قبرص وعكّا سعياً إلى خدمة الموارنة في تلك البلاد، ممّا سبّب صراعاً مع المرسلين اللاّتين، الذين اعتبروا من صلاحيّاتهم خدمة الموارنة في تلك الأصقاع، كما في بيروت وطرابلس.

ولكي تقوم الرهبانيّة بأوَدِ أبنائها وبالتزاماتها، استأجرتْ عدّة عقارات، أخصُّها أراضي البكليك في عين بقرة، وقِطَعٌ في سبعل، ووفتْ عنها ضريبة أهل الذمّة سنة 1713، كما اقتنت لها مطحنة أبي علي في طرابلس سنة 1715.

ولم يخلُ التوسّع من المخاطر: فاسترجَعَ بعض "الناذرين" ممتلكاتهم، ثم عادوا فقدّموها إلى الرهبانيّة. واستدانت الرهبانيّة ووزّعتْ، وذلك لأوّل مرَّةٍ، قسماً من ذلك الدَّين على الأديرة قدره 18327،30 قرشاً. وتكلّفتِ الرئاسة العامّة بتسديد الباقي[9]. وربّما لم تُحْصَ الستة آلاف قرش التي ساهمتْ بها الرهبانيّة اللبنانيّة في تكاليف المجمع اللبنانيّ ضمن هذه الديون. وقدّر الأب العامُّ توما اللبودي (1735-1741) فائدتَها بستة آلاف قرش سنة 1739[10]. وأقلق هذا المنحى قرأعلي وسبَّب معضلةً ظهرت نتائجُها السلبيّة في المرحلة اللاحقة. وبلغ عدد الرهبان المنضوين إلى الرهبانيّة اللبنانيّة خلال الأربعين سنة الأولى مئتين وعشرة رهبان.

وتمَّ في هذه المرحلة تصميم الزيِّ الرهبانيّ. ففُصِّلتِ العباءةُ كثوبٍ كاملٍ دون فتحةٍ من الأمام، لتتميَّز عن جُبَّةِ الاكليروس الأبرشيّ. وحيكَ الثوبُ من الصوف لوفرته في البلاد، ولكونه أرخَصَ من القطن المستوْرَد. ونُسِجَ الاسكيم أيضاً من صوف، أمّا القميصُ الداخليُّ فمن خام[11]. وسعى اللبوديّ إلى ان يتتلمذَ بعضُ الرهبان على الحياكة على يد رهبان مار فرنسيس. وكان السمعانيُّ قد وعده بأن يسهِّل له هذه الخدمة[12].

وثُبِّتَ أيضاً نظام "البروتوكول" وكرَّسَهُ القانون والعرف. فللأب العامّ أسبقيَّةٌ على الرهبان كافّة، وله الحقُّ، كما الأُسقف، في ارتداء الشارات الحبريّة. ويأتي بعده المدبِّرون، كُلٌّ في رتبته: أوّت، ثانٍ ، ثالث ورابع. ويتبع في السلسلة رئيس دير مار يوحنّا – رشميّا، فرئيس دير مار أنطونيوس – قزحيّا... ويتدرّج باقي الرؤساء حسب أقدميَّةِ النذر والسِّنِّ. ونُسِّقَت طريقة السلام الرهبانيّ...

---

9 - بليبل لويس، تاريخ الرهبانيّة اللبنانيّة المارونيّة، I، مطبعة يوسف كوى، مصر، 1924، ص 223.
10 - المرجع نفسه، ص 324.
11 - المرجع نفسه، ص 153، 154 و 158.
12 - المرجع نفسه، ص 324، 325.

واهتمّ المؤسِّسون بمسائل الروح، واعتبروها الركيزةَ في استمراريّة الرهبانيّة. فوضعوا مؤلّفات عديدة أبرزتْ خصوصيّتها، وأنمتْ وصَقلتْ روحانيَّتها، وساعدت على بناء الشخصيّة الرهبانيّة. وكان لها الأثرُ البليغُ في الحياة الروحيّة والفكريّة لدى الشعب الماروني، ولدى بقيّة الشعوبِ في الشرق قاطبة. فنهلتْ منها الأجيالُ الطالعة كما من ينبوع لا ينضب، تدفّق قداسةً فأروى محيطه.

إنّ غنى هذا التراث لم يُدرَس بعدُ كما يجب، لا على الصعيد الروحيّ ولا على صعيد تاريخ الآداب والفكر. وقد سها عنه مَن أخذ بضروب التأريخ التقليديّة. ونحن، وإن كنّا ندرك أهميّة هذا الموضوع، ونعتبره جزءاً من صميم تاريخ الرهبانيّة المجيد، نكتفي هنا بأن نشير إليه ببعض القرائن، واعدين بأن نُوَفّيَهُ حقَّه في دراسة منفصلة. كما أنّنا لن نتطرَّقَ إلى التنشئة وإلى الأُطُر التي تحميها، مع أنّها تشكّل أيضاً قضيّة في حدِّ ذاتها.

فروحانيّة الرهبانيّة تتجلّى في الممارسات التقشُّفيّة، والتمارين العقليّة، وفي ما كتبه المؤسِّسون، وقرأه وتربّى عليه الناذرون.

أتمّ قرأعلي تفسير القوانين سنة 1721. وعُرِفَ مؤلَّفُه ب "المصباح الرهبانيّ في شرح القانون اللبنانيِّ". وشاع استعماله في كلِّ الأديرة اللبنانيّة، وفي الأصقاع الشرق – أوسطيّة، حيث توجد منه عدَّة نسخ، أخصُّها نسخة دير مار أنطونيوس في روما بيد المؤلّف سنة 1721، ومخطوط مطرانيّة حلب المارونيّة رقم 440 سنة 1727. وقد طبعه الأب جرجس موراني الحلبيُّ اللبنانيُّ في بيروت، في مطابع سميا، سنة 1956. فشكّل هذا الكتاب، بمصادره المتنوّعة ومضامينه الغزيرة، الخبزَ اليوميَّ للرهبان، بعد الإنجيل. وذاعت منظومات وافراميات قرأعلي في الكنائس والأديار سنة 1727. ومسَّت إحساس الشعب الرحانيّ فقَبلها وتولَّع بها. ولكنّها ما عتّمت أن أثارت جدلاً، اذ اعتبرتها "التراثيّةُ" المارونيّةُ مُستَحدَثَةً ودخيلةً على الطقوس والعبادات المارونيّة.

ولمّا تبوَّأ قرأعلي سُدَّةَ أبرشيّةِ بيروت، أدقَّ مركز، في زمنٍ ما زال فيه أبناءُ مارون أهلَ جبال، ألّفَ كتاب "مختصر الشريعة"، ضمّنه اثنين وثلاثين فصلاً. وأوجد له شقيقاً دعاه "فقه فتاوى اللبنانيّ". وقد اضطلع قرأعلي بهذه المهمّة نزولاً عند رغبة السلطة الكنسيّة المارونيّة التي عمدتْ، منذ القرون الوسطى، إلى أن توفّر لها الأُسُس الاشتراعيّة. وتشكّل هذه المصنَّفات أكملَ مجموعةٍ في عصرها، إذ تحتوي على زبدة القوانين، منذ عهد الرومان، وتيودوسيوس ويوستنيانوس، مروراً بالعرب. وهل هناك من انفتاح أشمل؟!

ولو أضفنا إلى مجموعة قرأعلي مقرَّراتِ المجامع العامّة، ومجالسِ المدبِّرين، وحِزَمَ الحجج والعقودِ من وقفٍ وشراكةٍ وغيرِها، لَتَكَوَّنَ لدينا رصيدٌ حقوقيٌّ، اجتماعيٌّ، واقتصاديٌّ ندَرَ مثيلُه، وقلّما حازتْه مؤسّسة. يَعثُرُ الباحث على مخطوطات هذين المؤلَّفَين في أرشيف بكركي، وأقدَمُها يعود إلى سنة 1734. ونشر بطرس غالب أجزاءً من "المختصر" في "المجلّة البطريركيّة" في العددين 5، 6 سنة 1930 وسنة 1931، ونشره بولس مسعد كاملاً سنة 1959. فظلَّ "فقه فتاوى اللبنانيّ" مخطوطاً. ومؤخَّراً، درس الأب حنّا علوان هذين المصنّفين في أطروحته التي قَمها في جامعة اللاّتران سنة 1985.

أمّا جبرائيل فرحات، ندُّ قرأعلي، فتفوَّق في ميادين عديدة، وتزاحمت مؤلّفاته في الصدور، وأقدمُها:

"المثلّثات الدُّرِّيَّة"، كَتَبَهُ في ودير مار أليشاع النبي – بشرّي سنة 1706.

كتاب "الخُطَب البيعيّة"، سنة 1707.

"ديوان فرحات"، قمّة الصناعة الأدبيّة والعلم، وقد عرف عدَّة طبعات.

كتاب "الكمال المسيحيّ"، ألّفه عندما كان رئيساً عامّاً.

"الإعراب عن لغة الأعراب"، يرقى إلى سنة 1723، وتوجد منه نسخةٌ في مكتبة كنيسة القيامة في القدس، ونسختان في المكتبة الوطنيّة في باريس تحمل الأرقام (4279, 4280) .Par ar، وقد طبعه رُشَيْد الدحداح في مرسيليا سنة 1849، بعد أن زاد عليه وسمّاه: "أحكام باب الإعراب عن لغة الأعراب".
"سنكسار القدِّيسين"، رتَّبه سنة 1724.
"بلوغ الأرب في علم الأدب"، يستعرض فيه فرحات أنواع الجناس والبديع، ومنه نسخة بخطِّ المؤلِّف في مكتبة أبرشيّة حلب المارونيّة، ونسخة أخرى في المكتبة البريطانيّة (British Library) تحت رقم ar. chr (1699) 34 . وحققت إنعام فوّال القسم الأوّل منه وهو علم الجناس. أصدرته دار المشرق ببيروت سنة 1990 ضمن سلسلة "نصوص ودروس" (280 ص).
و"بحث المطالب في علم العربيّة"، مستندُ كلِّ تلميذٍ في الصرف والنحو والقواعد العربيّة، أصبح الكتاب المدرسيّ المعتمد في لبنان لفترة طويلة، وتكرّرت طباعته حتى يومنا.

أتت تآليف فرحات بفائدة مزدوجة: جودة في الفنون الأدبيّة واللغويّة، وتثقيف دينيّ، إذ اشتقَّ امثلته من "الكتاب المقدَّس" ومن تعاليم آباء الكنيسة.

وعمّق المؤسِّسون روحانيّة الرهبانيّة. فأسّسوا شركة أخويّة مار أنطونيوس سنة 1725، وطبعوا كتابه سنة 1727. وقد سبق أن أشرنا إلى تأثير مار أنطونيوس في التقوى الشعبيّة[13]. ورتَّبوا أوقات الصّوم ودورة الأعياد[14].

وطمّعوا الروحانيّة الشرقيّة بعناصر من العبادة الغربيّة، وهو أمرٌ اعتادوا عليه مذ كانوا بعدُ في حلب. فدخلوا في شركة الورديّة سنة 1727، ولاحقاً في أخويّة ثوب سيّدة الكرمل. وجعلوا عيد القربان المقدَّس "بطالة" في الرهبانيّة. وأخذوا يحتفلون بتذكار الآلام مساء كلِّ جمعة من الصوم ابتداءً من سنة 1743[15].

كانت هذه بعض معالم المرحلة الأولى التي دُعيَتْ بالعصر الذهبي الأوّل.

مرحلة الصعوبات (1742-1770)

ما إن توارى وجه المؤسِّسين – فرحات سنة 1732، وقرأعلي سنة 1742 – حتّى استُدعي الأبُ العامُّ السابقُ توما اللبوديُّ إلى روما، ليدافع عن نفسه حيال تُهمٍ قُدِّمَت ضدَّه. ونشب خلافٌ خطيرٌ في الرهبانيّة سنة 1742. دام هذا النزاع ربع قرنٍ ونيِّفاً، وأدّى إلى شطر الرهبانيّة إلى شطرين سنة 1768: الرهبانيّة اللبنانيّة المارونيّة (البلديّة)، والرهبانيّة المارونيّة الحلبيّة.

13 - المرجع نفسه، ص 229.
14 - المرجع نفسه، ص 204 – 208.
15 - المرجع نفسه، ص 140 – 196؛ 374، 375.

درس المؤرِّخون هذه الفترة-المحنة، ونشروا الكثير من الوثائق المتعلّقة بها، وتباينت آراؤهم في تقويمها. كرَّسَ لها الأب لويس بليبل الجزء الثاني من تاريخه، وخصَّص لها الأباتي بطرس فهد الجزء الرابع من مجموعته[16].

ونعتقد أن هذا النزاع قد هزَّ الرهبانيّة والكنيسة المارونيّة وجبل لبنان. لكنّه دخلَ التاريخ، وعلق بالماضي.

عرفتِ الرهبانيّة اللبنانيّة، نتيجةً لهذا الصراع، سلطتَين متوازيتَين، وذلك ابتداءً من كانون الأوّل سنة 1744. وجَرَتْ محاولات عدَّة في سبيل الصلح وتمتين اللُّحمة، ولكنّها باءت كلُّها بالفشل سنة 1748. وتكرَّس الانقسام سنة 1753. واعتَرَفَ به البطريرك يوسف اسطفان (1766-1793) سنة 1768، وأقرَّه الحبر الأعظم البابا اكليمنضوس الرابع عشر (1769-1774) ببراءة تحمل تاريخ 19 تموز 1770.

وبلغ عددُ الرهبان اللبنانيّين، زمنَ القسمة، مئةً وتسعين راهباً، بينهم راهبٌ واحد من حلب، وعددُ رهبان الفئة الحلبيّة واحداً وستين راهباً، بينهم خمسة رهبان من لبنان. والملاحَظ أنَّ معظم الأديرة التي تسلَّمتْها الرهبانيّة في أثناء احتدام النزاع، مثل دير مار ميخائيل – بنابيل سنة 1756، ودير مار جرجس – الناعمة سنة 1757، ودير مار موسى الحبشي – الدوّار سنة 1757، خُصِّصَت للرهبانيّة اللبنانيّة البلديّة.

وكان الأمير يوسف شهاب قد أوكل، سنة 1766، بمسعى مدبِّرَيه الشَيخَين سعد الخوري وسمعان البيطار، أمْرَ تدبير الأديرة وممتلكاتها، في مناطق جبيل والبترون، إلى الرهبانيّة اللبنانيّة البلديّة. فنهضت الرهبانيّة بهذه المسؤوليّة خير نهوض. فتعزَّز الوجود الرهبانيُّ والمسيحيُّ في تلك المناطق. واستفادت خزينة الإمارة الشهابيّة من إيرادات الضرائب على تلك الممتلكات.

مرحلةُ نموٍّ وازدهار (1770-1832)

ونفضت الرهبانيَّة اللبنانيَّة المارونيَّة عنها بسرعةٍ آثار عناء فترة القسمة المبرِّحة. ودخلت عصراً جديداً امتدَّ حوالى اثنتين وستين سنة، من الثلث الأخير من القرن الثامن عشر حتّى الثلث الأوّل من القرن التاسع عشر. التأم في هذه الحقبة حولى عشرين مجمعاً عامّاً، وفيها نُصِّبَ في المسؤوليّة دورها الطليعيَّ في تنظيم الكنيسة المارونيَّة، إذ شاركت في المجامع الإقليميّة، التي تَبَنَّتِ المجمع اللبنانيَّ (1736)، وأنهتْ رواسب مشكلة الراهبة "هنديّة" (1720-1798).

واستضافت الرهبانيَّة أعضاء مجمع مَيفوق، الذي عُقد في أحد أديرتها، في تموز سنة 1780، وتحمّلتْ مصاريف كلفته[17]. وغَدَتِ الرهبانيَّة مرجع ثقة في الشأن الكنسيِّ الماروني، فاستشار الكاردينال انطونلّلي الأبَ العامَّ مرقس الحدّاد الكفاعيّ عن حسن استعدادات البطريرك يوسف اسطفان، وذلك سنة 1783. وأقدَمَ البطريرك يوسف اسطفان نفسُه على إشراك الرهبانيَّة في تدبير الكنيسة المارونيَّة سنة 1784[18]. واشتركتِ الرهبانيَّة في المجمع الكنسيّ الذي عُقدَ في وطى الجوز، في أيلول سنة 1786. وتمثّلتْ بقوَّةٍ في مجمع بكركي المنعقد في 13 كانون الأوّل 1790، إذ حَضَرَه، إلى جانب الأب العامّ عمانوئيل الجمَيِّل

16 - بليبل لويس، تاريخ الرهبانيّة اللبنانيّة المارونيّة، II، مطبعة يوسف كوى، مصر، 1925.
فهد بطرس، تاريخ الرهبانيّة المارونيّة بفرعيها الحلبي والبلدي (1743-1770)، الجزء الرابع، مطبعة الكرَيم، 1966.
17 - بليبل لويس، تاريخ الرهبانيّة اللبنانيّة المارونيّة، III، المطبعة الكاثوليكيّة، بيروت، 1959، ص 57.
18 - المرجع نفسه، ص 80، 81.

(1790-1793؛ 1796-1799؛ 1802-1805؛ 1808-1810) المدبِّرون: مرقس الكفاعيّ، ونعمة الله النجّار، وعمانوئيل الرشماويّ ممثّلاً أيضاً مطران حلب. وتقرَّرتْ، في هذا المجمع، رتبة الأب العامّ في "الترائبيَّة" المارونيَّة، وهي أن يَحتلَّ المكانة الأُلى بعد الأساقفة. وكانت الرهبانيَّة اللبنانيَّة تَخصُّ البطريركيّة المارونيَّة بكمِّيَّة من النقود تُدعى "مجعولاً أو معاليم"، تتصرَّف بها البطريركيّة وفق احتياجاتها. وقد تَصاعدَ المبلغ عبر السنين[19].

طمحت الرهبانيَّة اللبنانيَّة، من جرّاء مشاركتها الفعّالة في المجامع الإقليميّة، إلى ان تنسِّق مع البطاركة والأساقفة الموارنة سُبُلَ الرسالة من خلال الخدمات الرعائيّة والتعليم في المدارس. فوُفِّقت إجمالاً في تذليل العقبات التي نَصبتْ في وجهها، لا سيَّما في كنائس منطقة جبيل والقدّيسة تقلا - المروج. واكتسبتْ حقَّ منح الغفرانات، والتوزيع الحصريّ لكتب مار أنطونيوس. وصَبَتْ إلى أن تقيم أسقفاً من بين صفوفها ليرسم كهنتها على مذابحها فلم تُفلِحْ.

شهدتْ هذه الحقبة أيضاً نشاطاً مطبعيّاً، لكنّه انحصر في الاهتمام بالكتب الطقسيّة التي يحتاج إليها الرهبان في صلواتهم اليوميّة. واقتنت الرهبانيَّة، كعادتِها، مطبعةً لها وضعتْها في دير مار موسى الحبشيّ - الدوّار، ثمَّ نقلتْها إلى دير مار أنطونيوس - قزحيّا في أوائل القرن التاسع عشر. وأنفقتْ على صيانتها وتجهيزها ، لكنَّ هذه المطبعة لم تفِ بكلِّ الاحتياجات في لبنان، لأنّ وسائل الطباعة بقيتْ تقليديّة، ولم تتطوَّر إلاّ في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. فاستمرَّ نسخ الكتب الروحيّة والاعتماد على مطبعة "مجمع انتشار الإيمان"، في استخراج الكمّيات الكبيرة. فطُبعت "الشبيَّة"، وهي فرضُ الرهبان الأخوة في روما سنة 1781[20]. وطُبعت "الشحيمة" و "خدمة القدّاس الإلهي" في مطبعة دير مار موسى الحبشيّ سنة 1789[21]. وتمَّت طباعة "نوافير القداس" للمرّة الأولى في دير مار أنطونيوس - قزحيّا سنة 1816، وأعاد طبعها المطران يوسف الدبس، أسقف بيروت، في نهاية القرن التاسع عشر[22]. وتجدَّد طبع "الشحيمة" في روما حيثُ أُرسِل الأب أثناسيوس الشموتي بين سنتَي 1828 و1830. وأشرَفَ الأستاذ متّى شهوان على تنقيحها، وساهم الخواجه غنطوس كوبا في تكاليفها[23]. واقتصر أيضاً نشاط التأليف على بعض المصنَّفات الثانويّة التي لا تستحقُّ أن تُذكَر في مقارنتها مع أعمال العهد الأوَّل.

أمّا على صعيد النموّ الاقتصاديِّ فقد حقَّقت الرهبانيَّة تقدُّماً ملحوظاً في هذه الفترة التي سُمِّيَتْ بالعصر الذهبيِّ الثاني. فوطَّدتْ حضورَها في مراكزها السابقة، وانتَشرتْ في مناطق جديدة لم تعهدها سابقاً. وهذا موجزٌ لإنشاءاتها في جبل لبنان:

استأجَرتْ قطعة أرض في جبل طورا من آل برُّه، مشايخ كفرحونة، سنة 1771، واستَملكتِ الجبل لاحقاً، وضمَّتْه إلى دير سيّدة مشموسة[24].

وشرعتْ في بناء كنيسة مار يوسف - بسكنتا سنة 1771[25].

---

19 - المرجع نفسه، ص 18.
20 - المرجع نفسه، ص 73.
21 - المرجع نفسه، ص 107، 108.
22 - المرجع نفسه، ص 230.
23 - المرجع نفسه، ص 261، 262 و271.
24 - المرجع نفسه، ص 8.
25 - المرجع نفسه، ص 54.

ونَفَذَتِ الرهبانيَّة إلى مناطق جديدة، خصوصاً في زحلة، حيثُ وهَبَها أمراء آل أبي اللمع، إقطاعيّو المنطقة، قطعة أرضٍ ليبنوا عليها أُنطُشاً، ويُشيِّدوا كنيسة يخدمون فيها الفلاّحين، شركاءَهم، وذلك سنة 1771[26].

ودخلتْ مع آل حمادة في شراكة الشلش في مزرعة كفرشلّي قرب مَيفوق سنة 1772[27].

وأنشأتْ دير مار عبدا - معاد سنة 1773، وابتنتْ فيه مدرسة في السنة التالية[28].

واشترتْ نصف أراضي مار شَينا - كفرزينا من مشايخ آل الضاهر سنة 1781[29]. واستأجرتْ من الشيخ غندور الخوري نصف أراضي المجَيْدل في الكورة، وضمَّتها إلى دير مار الياس – الراس سنة 1781.

وضَمنتْ في السنة نفسها من الأمير علي شهاب أراضيَ في بصرما، وأدَّت عنها الضرائب[30].

وتسلَّمتْ، من آل الأشقر بصفة وقف، ديرَ مار أنطونيوس النبع – بيت شباب سنة 1785[31].

واشترت، من الشيخ المحسن كنعان نَكَد، أرض السليخ قرب دير مار جرجس – الناعمة سنة 1786. واستملكتْ للدير نفسه نصف جلِّ البحر سنة 1801[32].

وتسلَّمتْ من الأمير يوسف شهاب وقفية في وادي شحرور، لتقيم فيها مدرسة لصالح أولاد الشركاء سنة 1788[33].

وتسلَّمت كنيسة القدّيسة تقلا – المروج سنة 1792[34].

وتسلَّمت وقفاً من آل غصوب في بيت الشعّار والفرَيكة سنة 1800[35].

وتسلَّمت وقفية سوزان جرمان في عشاش سنة 1805، سبَّبتْ لها متاعب ودعاوى انتهتْ حُبِّيّاً سنة 1832[36].

وتسلَّمت وقفية في بان، لتقيم فيها مدرسة سنة 1806[37].

ووهب الأمير بشير الثاني الشهابيّ سنة 1806، للأب العامّ إغناطيوس بليبل (1811-1832)، قطعَة أرضٍ في معلّقة زحلة لبناء أنطش وكنيسة لخدمةِ الفلاّحين. ولكنَّه صعَّب شروط الوقفية، ومنع الرهبان من استخدام شركائه وحيواناتهم في عمل أراضيهم[38].

إنَّ تَمَرْكُز الرهبانيّة في هذه النقاط قوَّى الوجود المسيحيّ في سهل البقاع ومشارفه، ووثَّق صِلات هذه المناطق بجبل لبنان.

وأسَّستْ دير مار مارون- عنَّايا ابتداءً من سنة 1814، وضمَّتْ إليه أراضيَ اشترتْها في كفربعال[39].

---

26 - المرجع نفسه، ص 13 و20.
27 - المرجع نفسه، ص 12.
28 - المرجع نفسه، ص 37 - 42.
29 - المرجع نفسه، ص 67.
30 - المرجع نفسه، ص 75.
31 - المرجع نفسه، ص 84.
32 - المرجع نفسه، ص 88 و153.
33 - المرجع نفسه، ص 101.
34 - المرجع نفسه، ص 124.
35 - المرجع نفسه، ص 152.
36 - المرجع نفسه، ص 175.
37 - المرجع نفسه، ص 190.
38 - المرجع نفسه، ص 209.

وكثُفتِ الرهبانيّة أيضاً حضورها في أعالي منطقة جبيل. فتسلّمتْ سنة 1815 وقفية دير القدّيسَين سركيس وباخوس – قرطبا، حيث قصدتْ إنشاء مدرسة للأهالي[40].

واشترت عودة في عجلتون سنة 1818، سبَّبتْ لها أيضاً بعض المتاعب[41].

واستملكتْ، بواسطة الأمير بشير الثاني، قسماً من أراضي حمى اللقلوق، ضُمَّ إلى دير سيّدة ميفوق، وذلك سنة 1827[42]. واهتمَّ الأب العامّ إغناطيوس بليبل شخصيّاً بهذه المشاريع، فعزَّزَ الشأن المسيحيَّ أيضاً في هذه المناطق.

وأنشأتْ مدرسة في رأس المتن سنة 1831، وتخلّت عنها سنة 1898، إثر نزوح الأمراء آل أبي اللمع عن المحلّة[43].

وضايق ولاة المنطقة العثمانيون الإمارة الشهابية طوال هذه المدّة. فالتهموا الغلال، وابتزُّوا الأموال، وأهلكوا النفوس، واستأثروا بخيرات الجبل الذي غدا موضع حسدهم وجشعهم، يمتصُّون موارده على هواهم دون شفقة أو رحمة بالعباد والبلاد. وطغى الجزَّار وبغى حتَّى انغرزت تجاوزاته في الذاكرة.

وترامى الحكّام والاقطاعيّون على الرهبانيّة لتحصيل الأميريَّة، فناءَتْ تحت ثقل الضرائب، فطالبتْ مراراً بإعادة إجراء "الديموس" لرفع الظلم والإجحاف. و"الديموس" هو نوعٌ من مسح للأراضي يقوم على تحديدها وتخمين غلاّتها، ويبرمج جدول الضرائب تبعاً لهذه العمليَّة القياسيَّة. ونورد بعض الأمثلة عن مسيرة دورة المساحة والمال خلال هذه الحقبة:

عَيَّن الأمير يوسف الشهابيّ لجنةً مسحتْ أراضي دير مار أنطونيوس-قزحيَّا سنة 1787[44]. وفرض الأمير بشير الثاني على الرهبانيّة ثلاثين كيساً من الضرائب سنة 1791. وخفَّضها إلى نصفها أي إلى 8400 قرش، بعد أن توسّط لديه الأب العامّ عمانوئيل الجمَيِّل. وقرَّر مجمع المدبِّرين توزيعها على الأديرة[45]. وأجرى الأمراء، أولاد الأمير يوسف شهاب، الديموسَ على أراضي دير القدّيسَين قبريانوس ويوستينا - كفيفان ومار الياس - الراس سنة 1802[46]. وفَرَضَ الأمير بشير الثاني ضرائب باهظة على أملاك الرهبانيّة في بلاد جبيل والبترون سنة 1812، ثم عدَّلها بطلب من الأب العامّ إغناطيوس بليبل[47]. وجَدَّد الأمير بشير الثاني ديموس أديرة الزاوية نزولاً عند رغبة الأب العامّ بليبل، وذلك لرفع الحَيف عن الرهبانيّة[48].

أدَّتِ الرهبانيّة الضرائب طوعاً. وغالباً ما دفعتْها عن شركائها وعن الفقراء. واعتبرتْ ذلك واجباً وطنياً ساهم في استقرار الإمارة الشهابيّة وشرعيتها، وفي استقلال جبل لبنان حيث ترعرعتْ. وللأب العامّ إغناطيوس بليبل، الذي ترأس الرهبانيّة حوالى سبعة مجامع، أي اثنتين وعشرين سنة تقريباً، فضلٌ كبير في بلورة هذا الوعي. وقد ربطته صداقةٌ متينةٌ مع الأمير بشير الثاني الشهابيّ .

---

39 - المرجع نفسه، ص 241 و264.
40 - المرجع نفسه، ص 220.
41 - المرجع نفسه، ص 239.
42 - المرجع نفسه، ص 260.
43 - المرجع نفسه، ص 275.
44 - المرجع نفسه، ص 95.
45 - المرجع نفسه، ص 114.
46 - المرجع نفسه، ص 158.
47 - المرجع نفسه، ص 212.
48 - المرجع نفسه، ص 273، 274.

ولكنَّ الأميرَ أميناً، نجلَ الأمير بشير، انقلب على الأب العامّ الذي رفض أن يقرضه ثمن مزرعة مجدل العاقورة . وألَّب ضدَّه فئةً من الرهبان كانت تذمَّرت من الحكم الطويل الذي كَبَتَ المعارضة. ولما التأمَ المجمع العامّ في دير سيِّدة طاميش سنة 1832، وأوشكتْ غالبيّة الرهبان أن تجدِّد لبليبل، انسحبت الأقليّة إلى دير مار يوسف – البرج، حيث اعتصمتْ. وتوسَّطتِ البطريركيّة المارونيّة بين الفئتين. فتنازل بليبل عن الرئاسة العامّة، تحاشياً لأي انقسام ممكن في الرهبانيّة. وانتُخِب مبارك حُلَيْحِل (1832-1835) أباً عامّاً كحلٍّ وسط.

وهكذا انتهت هذه الحقبة، وخلَّفتْ رواسب ستتفاعل في السنين المقبلة.

مرحلة التحوُّلات (1832-1913)

امتدَّت هذه الحقبة المضطربة جداً قرابة إحدى وثمانين سنة، قاد الرهبانيّة فيها ثمانية عشرَ أباً عامّاً، شَغَلَ بعضُهم سدَّةَ الرئاسة العامّة لأكثر من عهد، إمّا انتخاباً وإمّا تعييناً. ولم يُكمِلْ بعضُهم الآخر مدَّة رئاسته بسبب المرض أو الوفاة. وتخلَّلت هذه العهود نيابةٌ عامّة واحدةٌ تقلَّدها الأب يواصاف العُنَيسي الجاجيّ (1889-1891).

بلغَ عددُ الرهبان في بداية هذه الحقبة، أي سنة 1834، خمسمائة وثلاثة وسبعين راهباً، منهم مئتان وأحد عشر كاهناً، وثلاثمائة وثلاثة عشر أخاً، وتسعة وأربعون دارساً في دير القدِّيسَين قبريانوس ويوستينا – كفيفان ودير مار مارون – بير سنين[49].

وبلغ عددهم سنة 1908 تسعمائة راهب، منهم سبعمائة كاهن ومئتا أخ. وكان قد توقَّف قبول الترهُّب في الابتداء، في مستهلِّ عهد الأب العامّ مرتينوس سابا الغوسطاويّ (1875-1889)، بأمر من الكرسيِّ الرسوليِّ الذي عاد عن قراره سنة 1884، فَحَصرَ قبول طالبي الترهُّب بدير مار جرجس – الناعمة فقط.

ونشأ في هذه المرحلة العديد من الأديار والمراكز والمدارس، فُصِلَ مُعظمُها عن أملاكٍ قديمةٍ للرهبانيّة. وسنبيِّن ذلك لاحقاً.

وتاريخ هذه الحقبة لم يُكتب بعد. فقد توقّف الأب لويس بليبل، مؤرِّخ الرهبانيّة، عند سنة 1832. وقدَّم عنها الأب مارون كرم في مؤلَّفيه: "قصّة الملكيّة"، و"رهبان ضيعتنا"، بعض الشروحات والمعطيات العامّة "الخام" بدون أن يحلِّلَ ويبيِّنَ مجرى تطوُّر موضوعاته.

ونورد باقتضاب بعض العوامل الخارجيّة والداخليّة التي تفاعلت في مجتمعنا، ففَكَّكتِ الأطرَ التقليديّة على الصعيد السياسيِّ والقتصاديِّ والثقافيّ، وأدّتْ إلى ما دعوناه تحوُّلاً في التاريخ اللبنانيّ كما في التاريخ الرهبانيّ.

فعلى الصعيد السياسيّ، تفجّرت الصراعات الأوروبيّة في مناطقنا، وقوَّضت أُسُسَ الإمارة الشهابيّة، وعمَّت حالةٌ من الفوضى والضياع. وبعد انسحاب المصريين من جبل لبنان سنة 1840، أجَّجتِ الدولُ العظمى الصداماتِ الطائفيّة الدامية التي اندلعت بين الدروز والموارنة في السنوات: 1841، 1845، 1860. ورتَّبتْ هذه الدول لجبل لبنان أنظمةً سياسيّةً هزيلة، أخصُّها الحكم العثمانيُّ العسكريُّ المباشر، والقائمقاميّتان، ونظام شكيب أفندي. ثم استبدلت به سنة 1861 نظام المتصرفيّة الذي حظي نوعاً ما بقبول اللبنانيين.

---

49 - أجرى هذا الإحصاء الأب العام مبارك حليحل بطلبٍ من الموفد الرسولي Jean-Baptiste Auvergne، وذلك في 30 تشرين الأوّل سنة 1834، أنظر A.S.V. Deleg. Ap. del. Libano. Vol. 147

عانت الرهبانيّة آلاماً مبرِّحة بسبب تلك الأزمات، فزُهقتْ أرواح ستة وثلاثين راهباً من أبنائها، وتكبّدتْ خسائر فادحة في ممتلكاتها قيست بمئات الآلاف من القروش، ونُهبت معظم أديارها، ودُمِّرت في المتن والشوف.

وعاد الرهبان ولملموا جراحهم، واستجمعوا دُخْرَ الحياة الرهبانيّة، وعمَّروا، بصبرٍ وعنادٍ وجَلَد، كُلَّ ما تخرَّب، ضنّاً منهم برسالتهم، وشهادةً لاحترام العيش المشترك الأصيل في الجبل.

أمّا على الصعيد الاقتصاديّ، فقد اجتاحت الثورة الصناعيّة مناطقنا ابتداءً من سنة 1830، وربطتها بشبكة التبادل التجاريِّ العالميّة. فغَرقتِ الأسواق المحليّة بالسلع الأوروبيّة المتنوِّعة، وتَزعزعتْ أُسُسُ الاقتصاد الريفيّ. وحَدَّدَتِ المعاهداتُ التجاريّة، التي عُقِدَتْ بين الدول العظمى والسلطنة العثمانيّة سنة 1838 وسنة 1861، سُبُلَ التبادل الاقتصاديّ. وفَرضتْ رسوماً على النقل والجمارك لا تتناسب هي وإمكانياتُ القوى المحليّة المنتجة وأسعارُ إنتاجها. وتَعاظَمَ حجمُ التبادل التجاريّ على مرِّ السنين، وولَّد حاجةً ماسّة إلى التعامل بالنقود. وسعى مختلف الناس إلى توفير المال، تلبيةً لرغائب نمط المعيشة الجديد، وتأديةً للضرائب.

وخضع الرهبان قسراً لهذه المعطيات الجديدة. واجتهدوا كسائر اللبنانيين في أن يطوّروا قطاع زراعة شجر التوت، وتربية دود القزّ، الذي انسجمت مواسمه مع مقتضيات السوق في تلك الأيّام. وهكذا، استطاعوا أن يؤمّنوا السيولة التي كانت تعوزهم لمتطلّبات المعيشة، ولسدّ الديون، ولدفع الضرائب. وحاولوا، قدر الإمكان، أن يحدّوا من سرعة عطب هذا القطاع الذي تعرّض مراراً للأمراض ولتقلبات عوامل السياسة والاقتصاد. واضطُرُّوا، في نهاية القرن التاسع عشر، إلى شراء بذر دود القزّ مباشرة من فرنسا. وظلَّ موسمُ الحرير لديهم أهمَّ موردٍ اقتصاديّ، حتّى إنّ أراضيَهُم الصالحة للزراعة قيستْ مساحتُها بمعيار كمِّيَّة الدراهم المخصَّصة لغرس أشجار التوت. وضَربتِ السلطاتُ العثمانيّة الحصار على الجبل، قُبيل الحرب العالميّة الأولى، فخَنقَتِ المُنتِج والإنتاج. ولمّا انقَضَتِ الحرب حلَّت محلّ التوت زراعاتٌ أخرى متنوِّعة كالتفّاح وباقي الأشجار المثمرة. وبقيتْ كرخاناتُ الحرير تعمل ببطء، وتشهد لماضٍ برّاق حتّى السّتينيّات من القرن العشرين، ثم اندثرتْ.

وظَهرتْ، قُبيل النصف الثاني من القرن التاسع عشر، طبقة اجتماعيّة جديدة تألّفت منالمقاولين والسماسرة (Commis et Courtiers). هؤلاء ضبطوا مواسم الحرير، واستفادوا من تقهقر الطبقة الأرستقراطيّة، ومن تهافُت الطبقة المنتِجة عليهم لتصريف إنتاجها. فحقّق أولئك أرباحاً هائلة، واكتسبوا مكانة اجتماعيّة مرموقة. فعوَّل الرهبان على بعضهم في تصريف مواسم إنتاج حريرهم.

وقد حرَّرتِ الرهبانيَّة جزءاً من قواها الفاعلة، ابتداءاً من النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وتكرّستْ هذه القوى لعمل الرسالة عبر التعليم في المدارس والخدمة الرعائية، الأمر الذي جعل الرهبانيَّة تعتمد أكثرَ فأكثرَ على مساعدين من غير أبنائها لقيام أراضيها. وكان هؤلاء المساعدون إمّا شركاءَ وإمّا عمّالاً موسميين. فاشتدّت الأزمة الاقتصاديّة، وتصاعدت كلفة المعيشة، فأُجبر المساعدون على أن يهتمّوا بأشغالهم الخاصّة، وشحَّت اليد العاملة الاحتياطيّة. وساهمتْ قلّة العمّال في ارتفاع الأجور. وارتفعتْ فعلاً أجرة العامل من نصف قرش، في النصف الأوّل من القرن التاسع عشر، إى قرشين في نهايته. وسبَّب تصاعدُ الأجور ارتباكاً اقتصاديّاً خانقاً كلَّف الرهبانيَّة باهظاً. ووَقَعَتْ أكبر الأديار، مثل دير مار أنطونيوس – قزحيّا ودير سيّدة مشموشة، تحت عجزٍ ماليّ، وغرقتْ أديارٌ أخرى في الديون.

دفعتْ هذه الأزمة الاقتصاديّة الرهبانيَّة أكثر إلى الاعتماد على أسلوب الشراكة، وعلى سَلْكِ هذا النمط من التعاون بانتظام وبنجاح في البداية. واعتبر الرهبان تقوية مصالح شركائهم من صلب رسالتهم

الانسانيّة، ولم يكونوا يميِّزون أنفسهم بشيء عنهم. وضَعتِ الرهبانيَّة أرزاقهم في تصرُّفهم، وقدَّمت لهم البذار وآلات الإنتاج، وتخلَّت لهم عن نصف الغلال وأكثر، وسدَّدتْ عنهم الضرائب، ووفَّرتْ لهم الحماية وعلَّمت أولادهم.

وتفاقمت هنا أيضاً الأزمة الاقتصاديّة، فَفَكَّكَتْ عُرى الصِلاتِ الوثيقةِ التقليديّة. وخلَّفتْ مشاكلَ اقتصاديّة واجتماعيّة معقّدة، ظهرت سمائُها سنة 1861 عندما رَفعَ أهالي بْتدِّين اللِقْش دعوى على دير سيّدة مشموشة. ربحتِ الرهبانيَّة الدعوى على يد محاميها الأب إغناطيوس شكري، الذي تمنّى على الأب العامّ لورنسيوس يمّين الشبابيّ تسجيل "المضبطة" في سجلّ الرئاسة العامّة في دير سيّدة طاميش، وفي سجلّات دير سيّدة مَيفوق ودير مار أنطونيوس – قزحيّا، ولدى البطريركيّة المارونيَّة وباقي الرهبانيّات، لعلَّ هذه المؤسّسات تستفيد من الحكم في المستقبل. وصحَّ ظنُّ الأب المحامي، فتجدَّدتِ المشكلة بين الشركاء من أهالي بْتدِّين اللِقْش، ودير سيّدة مشموشة، في نهاية القرن التاسع عشر، وعشيّة الحرب العالميّة الأولى (1914-1918). وتنازلتِ الرهبانيَّة عن حقوقها غيرةً على مصلحة القريب، وحبّاً للوئام والسلام. واشتكى أيضاً الشركاءُ من أهالي العربة على دير قزحيّا. ورَبحتِ الرهبانيَّة الدعوى على يد الأب يوسف رقُّول، بعد أن خسرتْ أموالاً ضخمة.

ودفع الضيقُ الاقتصاديُّ، الطويلُ الأمد، الكثير من القوى الفاعلة إلى الهجرة. وكان من بينهم شركاء الأديرة. واعتاد هؤلاء أن يتركوا للدير أعباء إعالة عيالهم. فقامت الأديرة بواجب أوَدِهم بدون تقصير.

وفي غمرة هذه الأزمة، بَرَزَتْ أطماعٌ بأرزاق الرهبانيَّة، جنى الكدِّ والتعب واحتياط الوطنيّة والقوميّة. وارتفعت بعض الأصوات اللامسؤولة تنادي بمصادرتها وتوزيعها. وتكرَّرت هذه الافتراءات دونما أي اعتبار للتاريخ والمصير.

وسَبَقَ للدولة أن انتَهَكتْ حرمة الملكيّة الخاصَّة، ونفَّذتِ الأشغال العامّة في أراضي الرهبانيَّة، لا سيّما في الكرنتينا حيثُ أنشأتْ محاجر صحيّة وشركة للغاز، وفي قلب بيروت حيث هَدَمَتْ "أنطشاً" لتوسيع الطريق العامّ، وذلك بدون فكرة تعويض. وتساهلتِ الرهبانيَّة إزاءَ هذه المشاريع مساهمةً منها في خدمة المنفعة العامّة. وهذا ما يجري الآن في ممتلكاتها في الناعمة والدامور.

أمّا على الصعيد الثقافيّ، فقد كثُفتِ الإرساليّات الأجنبيّة البروتستانتيّة والكاثوليكيّة والأرثوذوكسيّة عملها في ترقّي العلوم في بلادنا منذ سنة 1830. وغدا العِلْمُ مطلباً عامّاً لكلّ فئات الشعب منذ عهد المتصرفيّة.

وشاءت الرهبانيَّة أن تحافظ على دَورها الطليعيّ في المجتمع. فتمسّكتْ باتّصالها المباشر بالشعب اللبنانيّ الذي انبثقتْ منه، وخَبرتْ ذهنيَّته، وتعهَّدتْ شؤون تربيته منذ تأسيسها. فأخذتْ هي أيضاً بنشر العِلم، وفتحتِ العديد من المدارس في كلِّ أنحاءِ البلاد. وهذه أهمُّها: مدرسة بيت لهيا سنة 1836، مدرسة رأس المتن سنة 1831، مدرسة الشبانيّة سنة 1839، مدرسة حملايا سنة 1849، مدرسة عين زبدة سنة 1853، مدرستا العذرا وكفرحيّال سنة 1854، تجديد مدرسة مار يوسف – المتَّين سنة 1866، مدرسة وادي جزّين سنة 1873، مدرسة إغبه سنة 1890، مدرسة بيروت لإكليريكيي الرهبانيَّة سنة 1891، مدارس سقي رشميّا والشقاديف وبعبدات سنة 1896، مدرسة بطحا 1904 ومدرسة طورزيّا 1932.

لم تعمِّر بعض هذه المدارس طويلاً للأسباب التي سبق أن أشرنا إليها، ويدلُّ عددها على المنحى الرسوليِّ الذي اختطَّته الرهبانيَّة لها. واقتَصر التعليم فيها على المرحلة الابتدائيّة. وساهمتْ قدر المستطاع بمحو الأُمِّيَّة. ورَعَتِ الإرساليّاتُ الأجنبيّة التعليم في المستويات العليا. وشهد لبنان حركة ثقافيّة ناشطة ورائدة

في العالم العربي. وظهرتْ طبقة جديدة مثقّفة تعاطت المِهَنَ الحرَّة كالتعليم والمحاماة والطب والصحافة. واستوعبتِ الإدارةُ جزءاً من هذه الطاقات التي لم يتسنَّ لها استخدامها في التنمية الاقتصاديّة. فخلّفت الحركة الثقافيّة إذنْ بعض النتائج السلبيّة، إذ حوّل الانكباب على تحصيل العلم شطراً من اليد العاملة في الزراعة إلى المدارس والميادين الحرّة الأخرى. ولم توفّر له سُبلُ التنشئةِ المتّبعة في تلك الأيّام إمكانيّة تطوير قطاع الزراعة، كما لم تسمح له بالشروع ببناء صناعات قويّة. ولم تتدارك السلطات المحلّيَّة والسلطنة العثمانيّة هذه المخاطر.

في ما يخصُّ التأليف، يكاد الباحث لا يعثر على أي أثر فكريّ ذي شأن. وأمّا ما يخص الترجمة فيُلاحَظ أنَّ حركتها قد خمدتْ؛ وأمّا الطباعة فقد اقتصرتْ على الكتب الليتورجيّة واللاهوتيّة المنقولة وبعض الكتب التارخيّة. وكانت الرهبانيَّة قد اشترت مطبعة سنة 1856، ووضعتْها في دير سيّدة طاميش، واستمرَّ النسخ.

اضطرب الوضعُ الداخليُّ في الرهبانيَّة من جرّاءِ الفوضى التي عمّت البلاد. أخذ رؤساء الأديار والرهبان النتحدِّرون من منطقة واحدة يستقرّون فيها. وأهملت الاجتماعات الدوريّة من أجل التنسيق والتشاور. فاستدعى هذا التبعثرُ تدخُّلَ روما بشكلٍ تدريجيّ.

اضطُرَّ الموفَدون الرسوليّون إلى تعيين الأب العامّ. وتعيَّن، لأوّل مرّة، الأب سابا كرَيدي العاقوريّ سنة 1845. ثم تعيَّن الأب لورنسيوس يمّين الشبابيّ لمَرَّتَين: سنة 1850، وسنة 1856 إثر "مجمع الشواديح". وبسط الشبابيّ سلطته على مجمل أديار بلاد جبيل والجبّة. وخضعت أديرة المتن والشوف لسلطة الأب العامّ المنتَخَب أرسانيوس النيحاويّ. فتصالح هذا الأخير مع الأب العامّ لورنسيوس الشبابيّ قبل وفاته سنة 1859، وعادت اللُّحمة إلى الرهبانيَّة، وانتُخِبَ الشبابيّ رئيساً عامّاً حتى سنة 1862.

حِرصاً على وحدة الرهبانيَّة، لجأتْ روما إلى الزيارة الرسوليّة، واضطلّع بها المطران يوسف جعجع، راعي أبرشيّة قبرص المارونيَّة، من سنة 1857 حتّى سنة 1874. وترأس الأب افرام جعجع البشرّانيّ الرهبانيَّة مُدَّةَ اثنتَي عشرة سنة (1862-1874).

ثمّ تقلّد الزيارةَ القاصدُ الرسوليّ لودوفيكس پياڤي (Piavi) الإيطاليّ الأصل (1875-1889). وكان حادَّ المزاج. فلم يحسن استعمالَ سلطته لحلِّ النزاعات بعيداً عن العنف. واسترجع النصَّ العربيَّ للمجمع اللبنانيِّ (1736) الذي صان الكنيسة المارونيَّة وصلاحيّات بطاركتها. واستعاض عنه بترجمة النصِّ اللاتيني. وحاول إخضاع البطاركة والأساقفة الموارنة للفرمان العثمانيّ عند دخولهم في الوظيفة. وعبث بقوانين الرهبانيَّة اللبنانيَّة. وحاول بشكلٍ خاصّ الاتّفاق مع المتصرِّف رستم باشا. وتصاعدتْ مقاومةُ هذا الواقع بدعمٍ من تيّار يوسف بك كرم الوطني، ممّا أزعجَ القاصد الذي قرَّرَ بالاتّفاق مع السلطة القائمة قمع المقاومة.

وصادف أنَّ المتصرِّف رستم باشا زار إهدن، واستُدعي إليها رهبان مار أنطونيوس – قزحيّا واضطُهدوا وأُهينوا. وسيق بعضهم إلى سجن بيت الدين. وبينما هم مقتادون في الطريق قرب البترون، إذ هبط إخوة لهم لتحريرهم، أتَوا من أديرة بلاد جبيل والبترون، فأدركتهم فرقة من "الجندرمة" حالت دون تحقيق مقصدهم. وخضع الرهبان في سجن بيت الدين للأشغال الشاقة، ومنهم من أدركتْهم المنيَّة فيه. ولم يحدث مثل ذلك من قبلُ في ظلِّ الأمبراطوريّة العثمانيّة.

واتُّخِذَت تدابير داخليّة في مجمع المدبِّرين، وُزِّعَ بموجبها بعض رهبان دير مار أنطونيوس – قزحيّا على المراكز القريبة، كما أُلحِق جزء من أراضيه بهذه المراكز.

أخلّت هذه الزيارات المتكرِّرة على الرهبانيَّة في عمل المجامع العامّة فنُوديَ بالإصلاح في السنوات العشر الأخيرة من القرن التاسع عشر. واتَّجهت الأنظار إلى الأب مبارك سلامة المتَينيّ خرِّيج جامعة القدّيس يوسف في بيروت. فبذل الأب العامّ مبارك سلامة (1891-1895) جهوداً حثيثة، ولكنَّ صعوبة المهمَّة، للأسباب التي تقدَّمت، وقِصَرَ مدَّة حكمه لم يسمحا له بتحقيق هذا المشروع.

ووضع الأب اليسوعي مارتينوف (Martinov) مُسَوَّدَةَ أوَّل دراسةٍ للإصلاح سنة 1893، نقَّحها "مجمع انتشار الإيمان" وأعلنها على الرهبان. وتضمّنت رسالةٌ وجَّهها الأب العامّ مرتينوس الشماليّ (1895-1899) المواضيعَ نفسها. وكرّر البطريرك الياس الحوَيِّك (1899-1932) التوصيات عينها.

ثمّ تسلّم الزيارةَ الموفدُ الرسولي دوڤال (Duval). وحرصتْ روما على أن تُشرك فيها البطريرك الحوَيِّك. ودامت هذه الزيارة من سنة 1898 حتّى سنة 1907. تميَّزتْ هذه الزيارة بتدخُّلات ومضايقات مريرة على الرهبانيَّة، مارسها مطارنة من حاشية البطريرك.

وهبَّ الأب العامّ يوسف رقُّول (1904-1910) يذود عن الرهبانيَّة بكُلِّ شجاعة ورباطة جأشٍ وحنكةٍ تُذكِّرُ بغيرة أترابه من الرعيل الأوّل وخصالهم، لا سيّما توما اللبوديّ. وقد فُطِر كلاهما على النضال والذكاء العفويّ، مثل قرأعلي وفرحات، ولكن بقَدرٍ من روحانيتهما. ووثّق رقّول بالمستندات تقريرَه السرِّيَّ لـ "مجمع انتشار الإيمان" وللكرسيِّ الرسوليّ، فتوقفت هذه الزيارة سنة 1907.

وبدأت عندها زيارة أخرى شملتْ الرهبانيّات المارونيّة الثلاث. أُوكِلتْ مهامُّ هذه الزيارة إلى ثلاثة رهبان لاتين. انسحب منها اثنان لاحقاً، وتسلَّمها الأب غالاند (Galland). واجهتْ هذه الزيارةُ حملةً صحفيّة سرِّيّة عنيفة، أطلقها الأب لويس بليبل، مؤرِّخ الرهبانيَّة، وسانده الأب رقّول. وقد باركها البطريرك الياس الحوَيِّك، لأنّه لاقى فيها انتقاصاً من صلاحيّاته. ونشرتْ جريدة "المناظر" لصاحبها نعّوم لبكي البعبداتيّ وقائع الحملة. وردَّت جريدة "البشير" موافِقةً عليها. وتوقَّفتْ هذه الزيارة خلال الحرب العالميّة الأولى، ثم استعادتْ نشاطها حتّى سنة 1922.

أمّا مقاربةُ المسائل المطروحة فقد توضّحتْ مع الأب غالاند الذي استقصى هو بنفسه العِلَل، ودوَّنها في تقرير مسهب شَمَلَ الرهبانيّاتِ الثلاث سنة 1911. وظهرت سلسلة دراسات موجزة تناولت حالة كلِّ رهبانيّة، وهي لا تزال مطمورة. وشرع إبّانها الأب لويس بليبل في كتابة تاريخ الرهبانيَّة. وتقدَّم الأب العامّ يوسف رقّول بدراسة ذات قيمة كبيرة حول القانون وسُبُل تطبيقه ضمَّنها اختباره. وألحقها بنبذة اقتصاديّة خمّن فيها موارد الرهبانيَّة بين سنتَي 1904 و1907، فبلغت مليونين وسبعمائة وثلاثة وستين ألف غرش وسبعمائة وتسعين غرشاً (2763790غ). يُحذَفُ من هذا المبلغ كُلُّ ما تستهلكه الأملاك لأجل قيامها. يصيب منها يوميّاً كلُّ فردٍ من أبناء الرهبانيَّة البالغ عددهم ثمانمائة شخص – رهباناً وراهباتٍ ومبتدئين ضمناً – ثلاثة غروشٍ وخمسَ بارات. تعيَّنتْ هذه الحصَّة لكامل مصاريف الراهب، ويشاركه فيها "التعميرات غير الاعتياديّة الاضطراريّة والضيف والخادم، وينازعه عليها الطمّاع، وتساهمه فيها نكبات الزمان". وجاء كلام رقّول في سياق ما لاحظه اللبوديُّ منذ مئة وخمسين سنة خَلَتْ. ويكون رقّول أوّلَ من وضع نسبة بين عدد الرهبان ومقدار إنتاجهم. ويُستثنى المبتدئ والدارس والشيخ من فئة المنتجين. ويُستنتَج من هذه الخلاصة الحسابيّة ما آلت إليه الزراعة في بداية القرن العشرين في لبنان في مؤسّسة وقفتْ نفسها لخدمتها.

وتجدر الإشارة إلى أن الزيارة الرسوليّة استمرّت حتى سنة 1952، ثم تجدَّدت سنة 1991.

وحاول الأب العامّ إجناديوس سركيس (1910-1913) ضبط الأمور الاقتصاديّة مكمِّلاً مسعى الأب العامّ يوسف رقّول، وتنظَّمت حينئذٍ الوكالة العامّة التي تُعنى بالشؤون الاقتصاديّة في الرهبانيَّة. وعمَّمَ الأب

العامّ إجناديوس سركيس رسالة على الرؤساء تعالج قضيّة التدوين في الرهبانيَّة، وكيفيّة ترتيب السجلاّت الرهبانيَّة والروزنامات والدفاتر الحسابيّة. وجَهدَ في أن يُخصِّص دير مار الياس – الكحلونيّة للذين يرغبون في عيش الحياة الرهبانيَّة المحصَّنة. وباشر تطبيق فَصْلِ النذور البسيطة عن الاحتفاليّة انسجاماً مع مقرَّرات المجامع السابقة. ولكنَّ مؤشِّرات الحرب العالميّة الأولى (1914-1918) أعاقت تحقيق هذه المبادرات.

وتنتهي مرحلة النصف الثاني من القرن التاسع عشر على نغمة تفاؤُلية. فقد رافقت فيها الرهبانيَّة نموّاً عمرانيّاً. وشُيِّدت إلى جانب المدارس التي سبق أن عدّدناها، أديرةٌ جديدة، وتفرّعت مراكزُ أُخرى عن أديرة قديمة. وهذه قائمة بها: تأسَّس:

دير مار يعقوب – الحصن قرب دوما سنة 1840، وفُصِلَتْ أملاكه عن دير مار أنطونيوس – حوب خدمةً لموارنة تلك المنطقة.

دير مار روكز – مراح المير سنة 1845، وفُصِلَتْ أملاكه عن أرزاق الوظيفة العامّة الواقعة في نهر الصليب وعجلتون، بقصد المساعدة في الخِدَمِ الروحيّة.

دير مار أنطونيوس – الجديدة ودير مار جرجس – عشاش سنة 1847، وفُصِلَتْ أملاكهما عن دير مار أنطونيوس – قزحيّا.

دير مار يوحنّا مارون – قبَّيع سنة 1847، وفُصِلَتْ أملاكه عن دير مار الياس – الكحلونيّة.

دير مار شلّيطا – القطّارة سنة 1847، واهتمّ ببنائه الأب العامّ لورنسيوس يمّين الشبابيّ سنة 1851.

دير مار جرجس – دير جنّين، وتسلّمته الرهبانيَّة خرائبَ من المطران بولس كسّاب سنة 1851.

دير القدّيسَين بطرس وبولس – العذرا سنة 1854.

أُنطش مار أنطونيوس – يافا سنة 1855.

أُنطش سيّدة المعونات – بعلبك سنة 1858.

دير المخلِّص – بحنّين سنة 1863.

دير مار سمعان العموديّ – القرن (أيطو)، وقد وتسلّمته الرهبانيَّة، سنة 1863، من المطران بولس موسى لتُعنَى بتدبير راهباته.

دير سيّدة النجاة – بصرما سنة 1876، وفُصِلَتْ أملاكه عن دير مار أنطونيوس – قزحيّا.

دير سيّدة النصر – غوسطا سنة 1879، وقد تأسّس ليكون مدرسة لنشء الرهبانيَّة[50]، وهو يجسِّد روعة الهندسة الرهبانيّة في تلك الفترة.

دير مار مارون – القنَيطرة سنة 1894، وخُصِّص للراهبات اللّبنانيّات المارونيّات.

دير مار يوسف – جُرْبْتا سنة 1897، وخُصِّص أيضاً للراهبات أنفسهن.

دير مار أنطونيوس – النبطيّة سنة 1907، وفُصِلَتْ أملاكه عن دير سيّدة مشموشة.

ولا يتسنَّى لنا في هذه المقدِّمة مناقشة دوافع تأسيس هذه الأديرة والمراكز.

إلى جانب المنحى الرسوليّ الذي تبنَّته الرهبانيّة منذ هذه الحقبة، يستطلع فيها أيضاً بوادر الإصلاح. كان الأب العامّ سابا كرَيدي العاقوريّ قد أرسل أوّل دفعة من الرهبان ليدرسوا في معهد الآباء اليسوعيين في غزير، لعلَّهم يتسلّمون لاحقاً مدارس الرهبانيّة. حافظ الأب العامّ مبارك سلامة على هذا الاتّفاق يوم انتقل الآباء اليسوعيون إلى بيروت حيث أسَّسوا جامعتهم، بما فيها كليّة الفلسفة واللاهوت. اشترى الأب العامّ مقرّاً

---

50 - صفير بولس، مئوية دير سيّدة النصر – نِسْبَيْه، نبذة تاريخيّة، الكسليك، لبنان، 1983؛
رزق كرم، "المطران يوحنا حبيب والرهبانيّة اللبنانيّة المارونيّة"، في المنارة، عدد 35، 1994، ص 185 – 196.

للرهبان الدارسين في شارع عبد الوهاب الانكليزيّ، قرب جامعة القدّيس يوسف، سنة 1891، ابتاعه من صاحبه المدعو الياس مهاوش الماروني من بيت مري بثمن قدره ألف ليرة فرنسيّة ذهباً. وعادت الرهبانيّة إلى بيروت ولا تزال فيها. وانطلقت أفواج المتخرِّجين من هذه المدرسة تتعهّد شؤون العلم في الرهبانيّة إلى أن اضطلعت بالمسؤوليّة جامعة الروح القدس – الكسليك. وكان بزوغ فجرها سنة 1950 على قدر رجاء الحلم الدفين.

ولا يغرب عن بال أحد أنّ وجهَ مار شربل القدّيس، حبيس عنّايا سطع في ذاك القرن. وكان قد تغمَّده الله برحمته سنة 1898. وبدأت عندها أخبار عجائبه تملأ الدنيا إلى أن أُعلِن قدّيساً للكنيسة جمعاء سنة 1977.

يجسِّد مار شربل والعديد من إخوته الرهبان، سواء الذين التزموا بموجبات الحياة الديريّة أو الذين انفردوا في المحابس، تراثاً روحانيّاً عريقاً وحيّاً شكّل جوهر النهج الرهبانيّ، وضَمِن استمراريّة الرهبانيّة اللّبنانيّة المارونيّة، على الرغم من الأزمات الداخليّة والتغيُّرات الخارجيّة التي تعرّضت لها.

تنبع هذه الروحانيّة من التعلُّق بالسيِّد المسيح، من حفظ تعاليم الإنجيل، من تتميم القوانين ومن ممارسة الصلوات والصَّوم والإماتات. إنّ التدرُّب اليوميَّ على عيش القداسة صَقَلَ شخصيّة الراهب اللّبنانيّ، وطَبعَ مسلكه بعلامات فارقة، وجعلَ من الرهبانيّة مدرسةً للكمال المسيحيّ توجِّه شطرَ الملكوت. وما القدّيس شربل والمكرَّم الحرديني والطوباويّة رفقا وغيرهم إلاّ شهود للمثاليّة المسيحيّة. أثروا في مجتمعهم ببساطة قناعاتهم، ورسَّخوا فيه الفضائل والقِيَم الثابتة، فسعى الناس إلى الاقتداء بهم، والتمسوا شفاعتهم، وتراكضوا لزيارة أضرحتهم. وما زال هذا البُعدُ الروحيُّ يعمل في المجتمع كالخميرة في العجين، ويجذُب الدعوات إلى الحياة الرهبانيّة.

مرحلةُ انفتاح وانتشارٍ في العالم (1918-1995)

حصلتْ في القرن العشرين تغييرات جذريّة، في العالم وفي المجتمع اللّبنانيّ، فرضتْ على الرهبانيّة التزامات تربويّة واجتماعيّة ووطنيّة جسيمة، كان لا بدَّ من أن تضطلع بها، وتتحمّل أعباءَها. ومؤسّساتُ الدولة لم تكن بعدُ أعدّت نفسها لتتدبَّر كُلَّ شؤون تلك التغييرات. وتعدَّدت عوامل التغيير وعناصره: اندلعت حروب عالميّة، فقُبِلتْ أنظمة سياسيّة واقتصاديّة، وبُدِّلت تركيبات ديموغرافيّة نتيجة للاقتتال، وتخالطت الشعوب، وحَدَثَتِ الهجرة عبر القارّات. وتطوَّرتِ الاختراعات والاكتشافات، فكان لها وَقعُها على مستوى تنظيم العمل ونوعيّته. وتحسَّنت شبكة المواصلات العالميّة برّاً وبحراً وجوّاً. وتغيّرتِ الحياة العائليّة ومفاهيمها. وترهَّفت الأحوال المعيشيّة في البيوت حيث دَخَلتْ تجهيزات جديدة كالبرّاد، والغسّالة، والتلفون، والراديو، والتلفزيون ومؤخراً الكمبيوتر، والتلاماتيك...

رافقتِ الرهبانيّة التطوُّر في بلادنا، وشاركتْ في صنعه، بقدر ما سمحتْ لها منطلقاتها وإمكانيّاتها والأوضاع العامّة. واعتادت أن تتحمّل المسؤوليّات الجسام، خصوصاً في الظروف العصيبة. فعندما شبَّتِ الحرب العالميّة الأولى، وهلك عشرات الآلاف من اللّبنانيين، وتضوَّر مثيلهم جوعاً، وقاسى نظيرهم الحصارَ والتعسُّفَ وسلبَ الحريّات، وقفتِ الرهبانيّة اللّبنانيّة إلى جانب البطريركيّة المارونيّة تُخفِّفُ الآلام والمصائب. ورهَنَ الأب العامّ إغناطيوس داغر (1913-1929) جميع ممتلكات الرهبانيّة للدولة الفرنسيّة، لقاء مليونَي فرنك ذهباً صُرِفتْ في إغاثة الفقراء والمحتاجين.

وتكرَّرتِ المحنة إبّان الحرب العالميّة الثانية (1939-1945)، فقامتِ الرهبانيّة مجدَّداً بدور السامريّ الصالح، وآوت في أديارها، خصوصاً دير مار جرجس الناعمة، اللاجئين والمعوزين. وَمنحتِ السلطات المدنيّة الأب العامّ باسيل غانم (1938-1944) الوسامَ المذهَّب تقديراً لتضحيات الرهبانيّة.

واقتفى الأب العامّ يوحنّا العندريّ (1944-1950) خطى أسلافه، ففتح الأديارَ للاّجئين الفلسطينيّين، سنة 1948. وأحاط الأب العامّ موسى عازار (1950-1956) بعطف خاص منكوبي الزلزال الذي ضرب لبنان سنة 1956. وعوَّضتِ الرهبانيّة على المتضرّرين بمساعداتٍ من صندوقها العامّ.

ولمّا اندلعت الحرب الأخيرة في لبنان، سنة 1975، واقتلعتْ عشرات الآلاف من المسيحيين من منازلهم وقراهم وأراضيهم، وضعَ الأب العامّ شربل قسّيس (1974-1980) إمكانيّات الرهبانيّة بتصرُّفهم في سبيل مساعدتهم، وكان له الفضل في تأسيس الجبهة اللّبنانيّة التي كوَّنت عمودَ المقاومة المسيحيّة، وركنَ القضيّة اللّبنانيّة في التاريخ المعاصر.

وأكملَ الأب العامّ بولس نعمان (1980-1986) هذا الخطَّ الوطنيّ، وأرسى قواعدَ نهجه. وقُدِّر له أن يفاوض على أعلى مستوى محافل السياسة، لإيجاد حلٍّ لمسألة لبنان. واهتمَّ بشؤون المهجَّرين، منسيّي الحرب، وابتنَتْ لهم الرهبانيّة في عهدِه، سنة 1984، ثلاث بنايات في أرزاق دير سيّدة المعونات، على مشارف جبَيل.

اهتمَّ الأب العامّ باسيل الهاشم (1986-1992) بمساعدة "مدرسة الطوباويّة رفقا المجانيّة" وتشجيعها، وظلّت تعمل حتّى سنة 1993، وكانت تستقبل حوالى ستمائة تلميذ، يتوزّعون على المرحلتَين الابتدائيّة والتكميليّة.

وشَجَّعتِ الرهبانيّة مبادرات أعمال الرّحمة. وجَهَدَ رهبانها في خدمة مهجَّري الدامور وغيرهم، وكانوا يؤمِّنون لهم الخدمات الروحيّة الضروريّة.

وساهم بعض أفراد من الرهبانيّة بإعانة الفقراء والمعوزين من خلال تأمين مطاعم خاصَّة لهم، كما ساهم بعضهم الآخر بمعالجة النتائج السلبيّة للحرب، وذلك بإنشاء جمعيّة تُعنى بالمصابين بالمخدِّرات.

تلك المبادرات عالجتْ بعض المصائب التي طرأت إبّان الحروب. ولكنَّ الرهبانيّة لم تكتفِ بمزاولة أعمال الرّحمة في الظروف غير الاعتياديّة فحسب، بل دأبتء على تخفيف معاناة الناس في حياتهم العاديّة اليوميّة؛ فأنشأتْ سنة 1949 مستشفى دير سيّدة المعونات – جبيل، ونقلته سنة 1973 إلى مشارف المدينة حيث يربض الآن. وبذلت جهوداً بالغة في سبيل تجهيزه بجسم طبّي من خيرة الاخْتصاصيّين، وبأحدث المعدّات والمختبرات الطبيّة، فأصبح اليوم من أهم المستشفيات في لبنان.

ولمّا كانت المنطقة الممتدّة من جبيل إلى طرابلس تفتقر إلى مركز صحيّ، ابتنت الرهبانيّة أيضاً سنة 1964 مستشفى مار شربل – البترون، ثم سلّمته إلى الدولة اللّبنانيّة سنة 1972. وشيَّدتْ أيضاً ميتم ومأوى سيّدة لبنان – حريصا سنة 1964، الذي ضمَّ مئات الأطفال، ووفَّر لهم أسباب التربية الصحيحة والعناية بالعجزة والسهر على خدمتهم.

وعمَّقَتِ الرهبانيّة اختبارها العريق في شتّى الميادين، فأمّنتْ للمجتمع اللّبنانيّ المتنامي، والتوّاق إلى التقدُّم والحداثة، جُلّى الخدمات، في مرافقَ عديدة، أخصُّها التعليم والرسالة.

لقد مارسَتِ الرهبانيّة العمل التربويّ منذ نشأتها. وشجَّعَ المجمعُ اللّبنانيُّ النشاط التعليميّ، وقرَّر أن يكون إلزاميّاً ومجّانيّاً، يعمّ الفتيان والفتيات. وتُعدُّ هذه التدابير تقدُّميةً وسابقةً عصرها.

نفَّذتِ الرهبانيّة تلك المقرَّرات، فاستقطبتْ في مدارسها الابتدائيّة تلامذةً ينتمون إلى مختلف فئات الشعب والعائلات الروحيّة. ثمّ اشتدَّتِ الحاجة إلى التعليم التكميليّ والثانويّ في مطلع القرن العشرين. وكان مؤتمر ڤرساي، الذي عُقد سنة 1919 ليَدرُس مستقبل لبنان وسوريا، قد خصَّ التعليم بحيِّز وافر من اهتماماته. وسَعَتِ العامّة لدى الرؤساء العامّين لتأمين العِلم، فلبّتِ الرهبانيّة النداءاتِ والطلبات المتكرِّرة. وفَتَحتْ معاهدَ في مجمل مناطق لبنان، خصوصاً في الأوساط الريفيّة، بُغية تثبيت السكّان في مناطقهم. ضمَّتْ هذه المعاهد جميع مراحل التعليم، وانحسر عدد المدارس بالنسبة إلى ما كانت عليه في القرن التاسع عشر، لكنَّ عديدها من رهبان وهيئات إداريّة وتلامذة قد تزايَد، حتى استقلّت تدريجيّاً عن الدير بمبانيها وحساباتها. وأُقيمت منشآت تتجاوب مع معايير التعليم العصريّة، وجُهّزَت بالمعدّات المدرسيّة الضروريّة. ونُسِّقت فيها برامج التدريس ومناهج التربية، فغَدَتْ تضاهي أكبر المعاهد في الشرق وفي أوروبا نفسها. انتشر إشعاعها في محيطها، فاكتسبتْ شهرة بجدّ أساتذتها، واجتهاد تلامذتها، وثقة أهاليها وارتياحهم.

وارتبطتْ هذه المدارس ثقافياً بوزارة التربية، وكان لها علاقات حسنة مع السفارات الأجنبيّة. ونظّمتْ مبارياتٍ علميّة ورياضيّة سنويّة، ورحلاتٍ ثقافيّة واستمتاعيّة في داخل لبنان والبلدان المجاورة.

وتعاظَم شأن هذه المعاهد، سنة 1944، حتّى اضطرَّ الرهبانيّة إلى استحداثِ مركزٍ خاصٍّ في السلطة العليا، يُعرف بالمديريّة العامّة. أوّل مَن شغل هذه الوظيفة كان الأب يوسف طَرَبَيْه، الذي انتُخب في وقت لاحق رئيساً عامّاً (1962-1968).

هذه هي أهمّ المدارس:

مدرسة سيّدة مَيفوق، تأسّست	سنة 1922
مدرسة سيّدة مشموشة	سنة 1922
مدرسة مار مارون – بير سنين	سنة 1936
مدرسة مار جرجس – عشاش	سنة 1945
المعهد اللّبنانيّ – بيت شباب	سنة 1945
مدرسة مار أنطونيوس – شكّا	سنة 1947
مدرسة مار شربل – الجيّة	سنة 1949
مدرسة مار أنطونيوس – حمّانا	سنة 1951
مدرسة مار يوسف – المتَين	سنة 1951
مدرسة سيّدة طاميش	سنة 1951
المدرسة المركزيّة – جونية	سنة 1966
مدرسة مار الياس – الكحلونيّة	سنة 1967

عرَفَتْ هذه المدارس نجاحاً علمياً وتربوياً باهراً، فتبوَّأ خرّيجوها أرقى المناصب في القطاعَين العامِّ والخاصّ. ولكنّها فشلتْ في أن تكفي ذاتها اقتصادياً. لقد تصاعدتْ دوماً رواتب الأساتذة والموظّفين، وفقاً لغلاء المعيشة، بينما تخلّف الأهلون غالباً عن تسديد الأقساط كاملة، بسبب الفقر والعوز. ولم تقدِّم الدولة أيَّ مساعدة، مع أنّها كانت قاصرة عن استيعاب عدد التلامذة المتزايد.

وسَخَتِ الرهبانيّة على مدارسها، وحرَّرتِ الكثيرين من أبنائها للعمل فيها، ودعمتْها بإنتاج أديارها، واضطُرَّت أحياناً إلى أنْ تبيعَ جزءاً من أرزاقها لتؤمِّن استمراريتها. ولمّا اشتدّت الأزمة الاقتصاديّة في السبعينيّات، سلّمتِ الرهبانيّةُ الدولة بعض مدارسها لقاء أجور واهية. وجاءت الحرب اللّبنانيّة – الأخيرة

(1975-1990) فدمّرتْ بعضَها، مثل مدرسة مار جرجس – عشاش، حيث ذُبِحَ ثلاثة رهبان سنة 1975، ومدرسة مار يوسف – المتَين، ومدرسة مار الياس – الكحلونيّة، ومدرسة مار مارون – بير سنين، ومدرسة مار شربل – الجيّة، وهي الوحيدة من هذه السلسلة الكئيبة التي عادت تعمل منذ سنة 1991. ولم تنَلِ الرهبانيّة حتى الساعة أيَّ تعويضٍ عن كُلِّ تلك الخسائرِ الفادحة.

وبسبب الحرب أيضاً ضحَّتِ الرهبانيّةُ بإحدى مدارسها اقتناعاً منها بأنّ للمعاق حقّاً في الحياة الكريمة، ويستحقّ كلَّ تضحية ووفاء. لذلك، تحوّل المعهد اللّبنانيّ – بيت شباب سنة 1976 إلى مستشفى للمعاقين. أمّا بقيّة مدارس الرهبانيّة فلا تزال تؤدّي دورها الحضاريَّ في المجتمع اللّبنانيّ.

حدَّدتِ الرهبانيّةُ غايتَها الأولى كرهبانيّة توحُّديّة – نسكيّة. لكنّها حرصتْ أيضاً على أن تجعل الرسالة من صُلبها، بدون أن تثير حساسيات في هذا المضمار. مارسَها المؤسِّسون، وتعاطتْها أجيال الرهبان اللاحقة. وحثَّ عليها المطران السمعانيّ، ونظّم أُطُرَها المجمعُ اللّبنانيّ. وانطلق الرهبان إلى أماكنَ صعبةِ المراس مثل عكّار، وجبال اللاذقيّة، والبقاع، وعكّا، وقبرص، ومصر...

واجَهَ عملُ الرهبانيّة الرسوليُّ عوائقَ كبيرة، منها قانونيّة، ومنها أنتروپولوجيّة نَتَجَتْ عن الإرساليّات الغربيّة والتراتبيّة المارونيّة ومخالطة الرهبان للناس.

ذلّل الرهبان تلك الصعوبات بفطنتهم، وحسن سيرتهم، وفائدة جهدهم. واتَّسعَ نطاق عملهم جغرافيّاً في القرن التاسع عشر. فقلّما وُجِدَتْ قريةٌ لم يمرَّ بها راهبٌ يَعِظُ في زمن الصيام، ويرسِّخ الإيمان والفضيلة والعبادات. واكتَسَب الرهبان ثقة الناس، وولجوا أعماق ضمائرهم وأسرارهم، وحَملوا همومهم وأوجاعهم، وفضّوا مشاكلهم، وشاركوهم أفراحهم، ورافقوهم بصلواتهم، وأمدُّوهم بالإرشاد والتَّوجيه.

يستحيل عدُّ الرهبان الذين قاموا بتلك الأعمال الروحيّة، وتقدير ثمار أتعابهم كمِّيًّا، تشهد على ذلك أوراق الرئاسة العامّة المليئة بطلبات المؤمنين لخدماتهم حتّى في قلب منطقة كسروان نفسها.

لم يتوقف نشاط الرهبانيّة الرسوليُّ عند حدود لبنان الجغرافيّة، بل تعدّاها إلى حيثما دعت الحاجة، وحيثما حلَّتْ وفودُ المهاجرين اللّبنانيين. وقد نتج عن تضحيات الرهبانيّة، في بلاد الانتشار، خيرٌ روحيٌّ ووطنيٌّ عميم.

وهذا جدولٌ زمنيٌّ – جغرافيٌّ بتوزيع رسالات الرهبانيّة في خارج لبنان:

دير مار الياس مطوشي – قبرص سنة 1737، رسالة داكار – السنغال سنة 1949
رسالة مندوسا – الأرجنتين سنة 1952، رسالة ساو پاولو – البرازيل سنة 1954
رسالة أبيدجان – شاطئ العاج سنة 1954، رسالة بامكو – مالي سنة 1959
رسالة مكسيكو – المكسيك سنة 1960، رسالة التوكومان – الأرجنتين سنة 1960
رسالة سدني – أُستراليا سنة 1972، رسالة لندن – انكلترا سنة 1983
رسالة مونتريال – كندا سنة 1984، رسالة مار شربل – سورين (فرنسا) سنة 1987
رسالة كركاس – ڤنزويلا سنة 1988.

ونظراً إلى هذا المدى الرسوليِّ الواسع، قرَّر مجمع الكنائس الشرقيّة، برئاسة الكاردينال تيسّيران، سنة 1955، إعلانَ الرهبانيّة اللبنانيّة المارونيّة رهبانيّةً رسوليّة.

إنّ التحوُّلات الجذريّة التي انتابتْ مجتمعَنا اللبنانيَّ، خلال القرن العشرين والتي سَبَقَ أن أشرنا إليها، لم تُعِقِ الرهبانيّة عن الاعتناء بشؤونها الداخليّة البحتة.

لقد اهتمّتِ الرهبانيّة بدعاوى قدّيسيها منذ عهد الأب العامّ إغناطيوس داغر. وتُقِرُّ الرهبانيّةُ بأنّ قداسة أبنائها هي خيرُ دليلٍ على عمق تراثها الروحيّ وغناه، وبأنّها غايةُ المنضوين في صفوفها، والضمانةُ الأكيدةُ للمستقبل. فأعلنتْ قداسة مار شربل سنة 1977، كما اشتُهر. أمّا دعاوى الطوباويّة رفقا والمكرَّم نعمة الله الحرديني فما زالت قيد المتابعة. وهناك أيضاً وجوهٌ أخرى عديدة تَنتظِر أن يُكشَفَ عن فضائلها.

وسَعتِ الرهبانيّة دوماً إلى تجديد قوانينها كي تنسجم أكثر مع روح العصر.

وتألّفت لجنةٌ لدرسها، منذ عهد الأب العامّ مرتينوس طَرَبَيْه (1929-1938).

فعَّل الأب العامّ يوحنّا العنداريّ عمل هذه اللجنة . وتحقّق المجمعُ الشرقيُّ من صحة القوانين، وثبَّتها سنة 1960 في عهد الأب العامّ إغناطيوس أبي سليمان (1956-1962). ووُضِعتْ في الاختبار لمدَّة عشر سنوات. واستُؤنِفتْ دراسة القوانين في عهد الأب العامّ بطرس قزّي (1968-1974). وانتهتِ اللجان من أعمالها سنة 1974. وبَذَلتِ العهود اللاحقة جهوداً بالغة لتعديلها، ومَع بدايةِ عهدِ الأب العامّ يوحنّا تابت في 4 شباط 1993، أكبَّ المجمع العامُّ الخاصُّ الاستثنائيُّ على وضع اللمساتِ الأخيرةِ لنصوص القوانين والفرائض الرهبانيّة؛ لتظهرَ بصيغتِها النهائيّة، ويُرتقبُ تثبيتُها قريباً.

خَلَقَتِ الدراسات والاجتماعات الرهبانيّة الدوريّة مناخاً من الحوار والديموقراطيّة، وأكّدتْ أنَّ الرهبانيّة مؤسَّسة تتمتّع بكلّ المؤهّلات التي تجعلها تستمرُّ.

خصَّتِ الرهبانيّة أيضاً نَشْأها بعناية كبرى في هذه الحقبة. وشَمَلتْ رعايتها جميع مراحل التنشئة. فاختارت أجدر المربّين، رهباناً ذوي علم وفضيلة، لتربية أبنائها. وانتَقَتْ لهم مراكز توافرت فيها كُلُّ أُطُر الحياة الديريّة. وأُدخِلت الطالبيّة سنة 1939 بمنزلة "دندانة" لقبول طلاّب حياة الترهُّب بعمر الاثنتي عشرة سنة. واجتَمع النشء في إكليريكيّة الكسليك، ما عدا المبتدئين. وحَصدَتِ الرهبانيّة، نتيجة عنايتها وأتعابها، ثماراً جيّدة، هم غالبيّةُ مَنْ يتسلّمون اليوم مقدَّراتها.

تَوَّجَتْ جامعة الروح القدس – الكسليك التي تأسَّست سنة 1950 مساعي الرهبانيّة الحثيثة في حقول التربية والتعليم. ودشّنت عهداً جديداً من الانفتاح على الانسان والعالم والقضايا المعاصرة. ولقد اعتادتِ الرهبانيّة عندئذٍ أن تُوفِد أفواجاً من أبنائها، ليُنهوا اختصاصاتهم في جامعات أوروبا وأميركا. واشتَغل المتخرِّجون لدى عودتهم من التدريس والأبحاث والإدارة في مؤسَّسات الرهبانيّة، لا سيّما في جامعة الروح القدس – الكسليك.

وتضمّ الجامعة ثماني كلّيّات، من ضمنِها كلّيّة اللاّهوت الحبريّة، وثلاثة معاهد. وهي لا تزال تنمو وتتطوَّر، وتشعّ في المجتمع بواسطة كفاءات خرِّيجيها وإنتاجها الفكريّ الذي يحتلّ مكاناً مرموقاً في صروح الثقافة العالميّة.

وقد تميَّز نشاط الجامعة بالنهضة الليتورجيّة والموسيقيّة، انسجاماً مع مقرَّرات المجمع الفاتيكانيِّ الثاني وحاجات الكنيسة المارونيّة. وتعبِّر مجموعة الكتب الطقسيّة التي تصدر عن منشورات الجامعة عن وَقع هذه النهضة بين المؤمنين. بالإضافة إلى ما أنتجتْه وتُنتجه الجامعة، تميّزتْ هذه المرحلة، على صعيد الرهبانيّة، بتآليف وترجمات تحملُ قيمةً عالية، يصعب ذكرها هنا. وطُبِعَ بعضُ هذه الأعمال في مطابع الرهبانيّة. وقد امتلكت الرهبانيّة مجموعة من وسائل الإعلام صَدَرَتْ كمجلاّت، مثل: "الميناء"، و"السنابل"، و"أوراق رهبانيّة"، و"كلمة الشرق" (Parole de l'Orient)، و"بيبليا"...

وأطلقتْ أيضاً سلسلة "طريق المحبة" بغية تلقين التعليم المسيحي بطرق حديثة. وهي تدير أيضاً البرامج الدينيّة عبر الراديو والتلفزيون...

لا تقوم رسالةٌ إلاّ من وحي الصليب. والتضحية بالذات وبالممتلكات هي أسطع شهادة لأقدس رسالة. هذا ما عاشته الرهبانيّة مع الشعب اللبنانيّ خلالَ الأحداث اللبنانيّةِ الأخيرة (1975-1990). فاستُشهد من أبنائها ثلاثة رهبان في دير مار جرجس – عشاش، هم الأبوان أنطونيوس ثمينة، وبطرس ساسين، والأخ حنا مقصود، وذلك في 8 أيلول 1975؛ ثم الأبوان يوسف فرح وجرجس حرب في دير مار جرجس – دير جنّين في 18 كانون الثاني 1976، وأخيراً الأب فرنسيس ضاهر أبو أنطون في دير مار يوحنّا مارون – قبَّيع في 29 حزيران 1982. ونُهبت ودُمِّرت ثمانية أديرة في الشوف والمتن، وقاسى رهبانها التهجير والحصار والاضطهاد.

عادتِ الرهبانيّةُ إلى تلك المناطق، تعمِّرُ ما تهدَّم من أديار ومراكز، وترمِّم ما تصدَّع من علاقات بين مختلف العائلات اللبنانيّة الروحيّة، تُغنيها نعمةُ الرّبِّ عن أيِّ تعويضٍ لخسائرها الفادحة. وهي تتطلَّع إلى يوبيلٍ آخرَ بإيمان عنيد، وحبّ شديد ورجاءٍ وطيد.